الأدب الجاهلي

إعداد

د/ أحمد محمد أحمد الليثي

كلية دار العلوم- جامعة المنيا

مفهوم كلمة أدب وجاهلي:

لعل من المفيد قبل أن نعرض للأدب الجاهلي وتاريخه وموضوعاته أن نتحدث بشيء من التفصيل عن المراد بكل من كلمتي "أدب" و"جاهلي" ماذا تعني كل منهما؟ وما التطور الدلالي الذي طرأ عليهما؟

أولًا: مفهوم كلمة أدب:

ففيما يتعلق بكلمة " أدب" فإن هذه الكلمة – باعتبارها جزءًا لا يتجزأ من اللغة، وباعتبار اللغة كائنا حيا يطرأ عليه النمو والتغيير والتبديل– قد انتقلت من معنى إلى آخر على مر العصور.

جاء في لسان العرب لابن منظور أن الأدب هو: الذي يتأدب به الأديب من الناس، وسمي أدبا لأنه يأدب الناس إلى المحامد، وينهاهم عن المقابح وأصل الأدب الدعاء، ومنه قيل للصنيع يدعى إليه الناس : مدعاة ومأدبة وقد أدبت. وأدب : أدبا حسنا، وأنت أديب من قوم أدباء ... والأدبة والمأدَبة والمأدُبة كل طعام صنع لدعوة أو عرس، وقال سيبويه: قالوا المأدبة كما قالوا المدعاة، وقيل في المأدبة من الأدب .

وعرفه الزبيدي في تاج العروس على أنه يتأدب به الأديب من الناس، وسمي به لأنه يؤدب الناس إلى المحامد، وينهاهم عن المقابح، وأصل الأدب الدعاء ويقول عن شيخه أبي عبد الله الطيب : الأدب ملكة تعصم من قامت به عما يشينه .

وكلمة أدب من الكلمات التي تطور معناها بتطور حياة الأمة العربية وانتقالها من دور البداوة إلى أدوار المدنية والحضارة. وقد اختلفت عليها معان متقاربة حتى أخذت معناها الذي يتبادر إلى أذهاننا اليوم، وهو الكلام الإنشائي البليغ الذي يقصد به إلى التأثير في عواطف القراء والسامعين؛ سواء أكان شعرًا أم نثرًا.

وإذا رجعنا إلى العصر الجاهلي ننقب عن الكلمة فيه لم نجدها تجري على ألسنة الشعراء؛ إنما نجد لفظة آدب بمعنى الداعي إلى الطعام؛ فقد جاء على لسان طرفة بن العبد:

نحن في المَشْتاةِ ندعو الجَفَلَى لا ترى الآدبَ فينا يَنْتَقِرْ

ومن ذلك المأدُبة بمعنى الطعام الذي يدعى إليه الناس. واشتقوا من هذا المعنى أدُبَ يأدُب بمعنى صنع مأدبة أو دعا إليها.

وليس وراء بيت طرفة أبيات أخرى تدل على أن الكلمة انتقلت في العصر الجاهلي من هذا المعنى الحسي إلى معنى آخر؛ غير أننا نجدها تستخدم على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم في معنى تهذيبي خلقي؛ ففي الحديث النبوي: " أدبني ربي فأحسن تأديبي" ويستخدمها شاعر مخضرم يسمى سهم بن حنظلة.

الغنوي بنفس المعنى إذ يقول :

لا يمنعُ الناسُ منِّي ما أردتُ ولا أعطيهم ما أرادوا حسن ذَا أَدبا

وربما استُخدمت الكلمة في العصر الجاهلي بهذا المعنى الخلقي؛ غير أنه لم تصلنا نصوص تؤيد هذا الظن. وذهب"تالينو" إلى أنها استخدمت في الجاهلية بمعنى السنّة وسيرة الآباء مفترضًا أنها مقلوب دأب؛ فقد جمع العرب دأبًا على آداب كما جمعوا بئرًا على آبار، ورأيًا على آراء، ثم عادوا فتوهموا أن آدابًا جمع أدب؛ فدارت في لسانهم كما دارت كلمة دأب بمعنى السنة والسيرة، ودلوا بها على محاسن الأخلاق والشيم. وهو فرض بعيد، وأقرب منه أن تكون الكلمة انتقلت من معنى حسي وهو الدعوة إلى الطعام إلى معنى ذهني وهو الدعوة إلى المحامد والمكارم؛ شأنها في ذلك

شأن بقية الكلمات المعنوية التي تستخدم أولًا في معنى حسي حقيقي، ثم تخرج منه إلى معنى ذهني مجازي.

ثانيا مفهوم كلمة جاهلي :

لفظ الجاهلية وإن كان في الأصل صفة، فقد غلب عليه الاستعمال حتى صار اسمًا، ومعناه قريب من المصدر. وهو من حيث الاشتقاق اللغوى: مصدر صناعي، مأخوذ من "الجاهلي" نسبة إلى "الجاهل" المشتق من "الجهل". والجهل، في اللغة نقيض العلم. ويقول الألوسي : هو عدم العلم، أو عدم اتباع العلم.. فمن قال خلاف الحق، عالمًا أو غير عالم، فهو جاهل .

والجاهلية : الزمان الذي كثر فيه الجهال، ويقول ابن خالويه: إن هذا الاسم حدث في الإسلام للزمن الذي كان قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم.

و"الجاهلية" اصطلاح مستحدث، ظهر بظهور الإسلام، وقد أطلق على حال قبل الإسلام تمييزًا وتفريقًا لها عن الحالة التي صار عليها العرب بظهور الرسالة، على النحو الذي يحدث عندنا وعند غيرنا من الأمم من إطلاق تسميات جديدة للعهود القائمة، والكيانات الموجودة بعد ظهور أحداث تزلزلها وتتمكن منها، وذلك لتمييزها وتفريقها عن العهود التي قد تسميها أيضًا بتسميات جديدة.

فالعرب على هذا كانوا قبل الإسلام جاهليين: في زمن جاهلي، وهم كانوا جاهلين، أي غير عالمين، أو غير متبعين ما يقتضيه العلم. وهل كان العرب قبل الإسلام حقا كذلك؟

إن هذا الرأي يفسر الجهل بما يناقض العلم، ويفسر الجاهل بغير العالم، أو بمن يفعل فعل غير العالم، ومقتضى هذا أن العرب قبل الإسلام لم يكن لديهم علم البتة، أو كان لديهم علم ولكن سلوكهم كان على غير مقتضاه.

والظاهر أن الاحتمال الثاني هو الأقرب للصواب، بل هو الصواب، فلم يكن العرب في ذلك الوقت جاهلين جهلًا ينافي العلم، فقد ثبت أنهم كانوا أهل ذكاء ودراية وخبرة، وكان فيهم أذهان صافية، ونظرات صادقة في الطبيعة وأحوال الإنسان بما لا يقل عن بعض نظرات الفلاسفة والباحثين والمفكرين. ويحكي لنا التاريخ كثيرًا عما كان في جزيرة العرب في ذلك الوقت، مما يدل على أنهم حينئذ لم يكونوا في جهل تام، بل كانوا على شيء من العلم والتفكير.

فما يروى لهم من الشعر يدل على صفاء نفوسهم، وصدق عواطفهم، ورقة إحساساتهم ومشاعرهم، ووصول شعرهم إلينا وهو على هذه الحال من النضج والكمال يدل على أنهم كانوا قد قطعوا أشواطًا كبيرة، واستعملوا فيها عقولهم وتفكيرهم وأذواقهم في مجال التعبير والتصوير حتى وصلوا بفنهم إلى هذه الدرجة العليا من الدقة والعذوبة والجمال .

ما تضمنه هذا الشعر، وما نسب إليهم من نثر: من معانٍ سامية، وأفكار ناضجة، وإشارات عديدة إلى شيء من العلم، وبخاصة في الطب يدل على عقلية ميالة إلى التفكير، قوية الملاحظة، وربما تكون هذه الإشارات من الأمور البدائية التي تعتمد على المصادفة، أو تستنتج عن طريق التجربة، ولكن هذا، ولا شك، يدل على يقظتهم ووعيهم، وتنبههم إلى ما حولهم، وقدرتهم على استكشاف ما في الكائنات من أسرار، وذلك كله لا يصدر عن جاهل ولا يكون إلا عن طريق العقل الكامل والتفكير السليم.

الحياة الجاهلية

١- الحياة السياسية:

يسمي العرب بلادهم " جزيرة العرب" أحيانا أو " الجزيرة " وهي في الواقع " شبه جزيرة لأن الماء لا يحدها شمالا فسموها جزيرة تجاوزا .

اتفق الرواة وأهل الأخبار، أو كادو يتفقون على تقسيم العرب من حيث القدم إلى طبقات: عرب بائدة، وعرب عاربة، وعرب مستعربة. أو عرب عاربة، وعرب متعربة، وعرب مستعربة. أو عرب عاربة وعرباء وهم الخلص، والمتعربة. واتفقوا أو كادوا يتفقون على تقسيم العرب من حيث النسب إلى قسمين: قحطانية، منازلهم الأولى في اليمن. وعدنانية، منازلهم الأولى في الحجاز.

واتفقوا، أو كادوا يتفقون على أن القحطانيين هم عرب منذ خلقهم الله، وعلى هذا النحو من العربية التي نفهمها ويفقهها من يسمع هذه الكلمة. فهم الأصل، والعدنانية الفرع، منهم أخذوا العربية، وبلسانهم تكلم أبناء إسماعيل بعد هجرتهم إلى الحجاز، شرح الله صدر جدهم إسماعيل، فتكلم بالعربية، بعد أن كان يتكلم بلغة أبيه التي كانت الإرمية، أو الكلدانية، أو العبرانية على بعض الأقوال .

ومن ثم ينقسم العرب إلى قسمين أو شعبين كبيرين عرب الشمال (الحجازيين) وعرب الجنوب (اليمنيين) فعرب الشمال يسمون العدنانيين وعرب الجنوب يسمون القحطانيين وبينهما عداء قديم.

ومن أهم الحروب التي وقعت بين القحطانية والعدنانية: يوم البيضاء: وهو من الأيام القديمة، وسببه أن القبائل العدنانية قد امتعضت من قدوم القبائل القحطانية من الجنوب إلى الشمال، ومنافستها على الماء والمرعى. فلما جاءت قبيلة "مذحج"

القحطانية من اليمن، وقصدت متسعا من الأرض في سهل تهامة، الذي اعتبر في عرف الأخباريين موطنا لقبائل معد من قديم الزمن، اصطدمت بهذه القبائل، فبرزت لها قبيلة عدوان وزعيمها يومئذ عامر بن الظرب العدواني، الذي اجتمعت قبائل معد بأسرها تحت لوائه، فهاجم القبيلة اليمنية القادمة وهزمها في موقع "البيضاء".

وكان للعرب قي الجاهلية أيام تسمى أيام العرب، ويقصد بأيام العرب تلك الحروب والوقائع التي نشبت بين القبائل العربية في المجتمع الجاهلي الذي كان يضطرم بالمنازعات. وتعتبر هذه الأيام بما اشتملت عليه من أحداث ومناسبات توضح أسباب ودواعي ما وقع بين مختلف القبائل الجنوبية "القحطانية" أو بين شتى القبائل الشمالية "العدنانية" أو ما وقع بين القحطانية والعدنانية، أو بين العرب عامة وبين الأقوام غير العربية، كالفرس والروم والبيزنطيين من حروب مصدرًا من مصادر التأريخ للعلاقات التي كانت سائدة بين القبائل العربية.

كما أنها بما روي في أثنائها من مأثور الكلام ورائع النثر وحماسي الشعر، وبما اشتملت عليه من طريف القصص، وما تخللها من بيان للطبائع والتقاليد البدوية، تعتبر ينبوعًا من ينابيع الأدب، وبابًا كبيرًا من أبوابه، ومرآة تعكس أحوال العرب وعقليتهم، وعاداتهم وتقاليدهم في الحرب والسلم والأسر والفداء، كما تنبئ بفضائلهم وشيمهم التي فطروا عليها، كالشهامة والوفاء بالعهد وحماية الجار والانتصار للقبيلة والصدق والصبر في القتال.

أما بالنسبة لنظام الحكم فقد كان يغلب عليه النهج الديمقراطي ، ذلك أن الفرد في القبيلة له مكانة مرموقة، وليس شيئا تافها عديم الأهمية. بل قد يؤدي قتل فرد من أفرادها على يد فرد من قبيلة أخرى إلى حرب بين القبيلتين أخذًا بثأره؛ لأن أهمية القبيلة تكون بقوة أفرادها وكثرة عددهم.

ولذلك وجب على الرئيس ألا يمارس على أفراد قبيلته سلطة دكتاتورية مستبدة طاغية، بل وجب عليه أن يسود قبيلته بالتشاور مع رؤساء وزعماء بطونها وذوي الرأي والمشورة من أبنائها، بحيث يضمهم مجلس يسمى "مجلس القبيلة" الذي ينبغي عليه أن يجتمع كلما دعت الضرورة إلى اجتماعه. ومع ذلك يمكن القول: إنه كان للرئيس نفوذ كبير على قبيلته، إذ كانت كلمته مطاعة من الجميع، يتبعون رأيه فيوجههم أنَّى شاء، يقيمون بإقامته ويظعنون بظعنه، وإذا دعاهم للحرب لا يتأخرون.

وللرئيس حقوق أدبية: معنوية ومادية على أفراد قبيلته مثلما عليه واجبات نحوهم. فلقاء ما يبذل من جهود لتأمين مصالحهم وتدبير معاشهم ورفع مكانتهم، وجب عليهم – كما يقول ابن خلدون– أن يوقروه ويجلوه ويحترموه، وأن يرضوا بما يخص به نفسه من حصص في الغنائم التي تحصل عليها القبيلة في الغزوات والحروب، وأن تكون له منها حصة الأسد: يأخذ النشيطة "ما تصيبه في طريقها إلى الغزو" والصفية "ما يصطفيه لنفسه من الغنيمة" والمرباع "ربعها" والفضول "ما يفضل منها بعد قسمتها فيهم ولا يمكن تقسيمه، كالبعير الواحد أو الشاة الواحدة".

وهو يعتبر ذلك كله حقًّا من حقوق رئاسته وسيادته للقبيلة، يعده لما يطرأ من النوائب، وما يتحمل من التبعات المالية، فيفي بما يوجب عليه الكرم والجود من موجبات هي في أخلاق البادية فرض واجب على الزعيم والرئيس. وقد جمع أحد الشعراء ما يصيب رئيس القبيلة من الغنيمة في بيت واحد من الشعر:

لك المرباع منها والصفايا   وحكمك والنشيطة والفضول

وعلى الرغم من أن تولي الرئاسة يكون قائما على مبدأ الانتخاب، لكنه ليس انتخابا بالمعنى الذي نفهمه اليوم، بل هو أشبه بالاختيار التلقائي، إذ يفرض الرئيس نفسه على قبيلته بما وهب من صفات ذكرناها. ومع أن الحكم في القبيلة وراثي، ينتقل في

الغالب إلى أكبر أبناء الرئيس، فإنه كثيرًا ما يتعين على الابن أن يحقق هذه الزعامة لنفسه بأن يقيم الدليل –مستقلا– على شدة بأسه وقوة مراسه، ولا يتنكر في سلوكه للصفات التي يجب أن تتوفر لرئيس القبيلة حتى يسودها ويدير شئونها.

غير أنه لابد للقبيلة، ممثلةً بمجلس زعمائها، أن ترضى غالبًا بابن رئيسها الراحل، زعيمًا وشيخًا للقبيلة. يقول ابن خلدون: إنه من النادر أن تستمر رئاسة القبيلة في أكثر من أربعة آباء في العقب الواحد. ويعلل ذلك بأن الفضائل التي يتحلى بها الرئيس الأول، والتي تخوله السيادة والسيطرة، لا تلبث أن تنحل رويدا رويدا كلما تولى واحد من أعقابه المتتالين، إلى أن تضمحل تلك الفضائل في السيد الرابع، فتحتقر القبيلة شأنه، وتستبدل به سواه من تلك القبيلة١. غير أن ما يذكره ابن خلدون لا يمكن أن يعتبر قاعدة، فقد يأتي من أبناء وأحفاد الرئيس من هم أقدر وأجدر بالحكم من أبيهم أو جدهم.

وقد تمتد سلطة الرئيس إلى قبائل أخرى يجمعها تحت لوائه بالحلف أو الجوار؛ فتزداد قوته ويتسع نفوذه، وقد يكون العكس فتنقسم قبيلته بعد موته، فيتولى كل ولد من أولاده بطنًا من بطونها.

وللأحلاف التي انعقدت بين مختلف القبائل العربية قبل الإسلام أهميتها، من حيث كونها بداية تجمع، قد استُغل مرارًا لتشكيل عدد من الدول "دولة الحيرة، دولة كندة" ذلك أن القبائل العربية قد شعرت بضرر العزلة وخطورتها، وأدركت ألا سبيل إلى أن تحافظ قبيلة ما على كيانها إن بقيت في عزلة عن غيرها، بل هي بحاجة إلى التضافر والتناصر مع القبائل التي تمتُّ إليها بصلة النسب أو الجوار أو المصلحة المشتركة.

٢- الحياة الاجتماعية:

كانت القبيلة في العصر الجاهلي تتألف من ثلاث طبقات: أبناؤها: وهم الذين يربط بينهم الدم والنسب وهم عمادها وقوامها، والعبيد: وهم رقيقها المجلوب من البلاد الأجنبية المجاورة وخاصة الحبشة، والموالي: وهم عتقاؤها، ويدخل فيهم الخلعاء الذين خلعتهم قبائلهم ونفتهم عنها؛ لكثرة جرائرهم وجناياتهم. وكانوا يعلنون هذا الخلع على رءوس الأشهاد في أسواقهم ومجامعهم، وقد يستجير الخليع بقبيلة أخرى فتجيره، وبذلك يصبح له حق التوطن في القبيلة الجديدة، كما يصبح من واجبه الوفاء بجميع حقوقها مثله مثل أبنائها.

ومن هؤلاء الخلعاء طائفة الصعاليك المشهورة، وكانوا يمضون على وجوههم في الصحراء، يتخذون النهب وقطع الطريق سيرتهم ودأبهم، على نحو ما نعرف عن تأبط شرًّا والسليك بن السلكة والشَّنْفَرَى. على أن منهم من كان يظل في قبيلته لفضل فيه مثل عروة بن الورد، وكان كريمًا فياضًا، وأثر عنه أنه كان يجمع إلى خيمته فقراء قبيلته عبس ومعوزيها ومرضاها، متخذًا لهم حظائر يأوون فيها، قاسمًا بينه وبينهم مغانمه.

وهذا الخلع إنما كان يحدث في حالات شاذة، أما بعد ذلك فإن أفراد القبيلة كانوا متضامنين أشد ما يكون التضامن وأوثقه، وهو تضامن أحكم عراه حرصهم على الشرف وقد تكونت حوله مجموعة من الخلال الكريمة لعل خير كلمة تجمعها هي كلمة المروءة التي تضم مناقبهم، من مثل الحلم والكرم والوفاء وحماية الجار وسعة الصدر والإعراض عن شتم اللئيم والغض عن العوراء.

ولم تكن خصلة عندهم تفوق خصلة الكرم، وقد بعثتها فيهم حياة الصحراء القاسية وما فيها من إجداب وإمحال؛ فكان الغني بينهم يفضل على الفقير، وكثيرًا ما كان

يذبح إبله في سنين القحط، يطعمها عشيرته، كما يذبحها قرير العين لضيفانه الذين ينزلون به أو تدفعهم الصحراء إليه. ومن سننهم أنهم كانوا يوقدون النار ليلًا على الكثبان والجبال؛ ليهتدي إليهم التائهون والضالون في الفيافي؛ فإذا وفدوا عليهم أمَّنوهم حتى لو كانوا من عدوهم. ويدور في شعرهم الفخر بهذه النيران وأن كلابهم لا تنبح ضيوفهم لما تعودت من كثرة الغادين والرائحين، يقول عوف بن الأحوص :

ومستنبح يخشى القواء ودونه	**من الليل بابًا ظلمة وستورها**
رفعت له ناري فلما اهتدى بها	**زجرت كلابي أن يهر عقورها**
فلا تسأليني واسألي عن خليقتي	**إذا ردَّ عافي القدر من يستعيرها**
ترى أن قدري لا تزال كأنها	**لذي الفروة المقرور أمٌّ يزورها**
مبررة لا يجعل الستر دونها	**إذا أخمد النيران لاح بشيرها**
إذا الشول راحت ثم لم تفد لحمها	**بألبانها ذاق السنان عقيرها**

واشتهر عندهم بالكرم الفياض كثيرون، مثل حاتم الطائي الذي ضربت الأمثال بكرمه، وهو يصوره في كثير من شعره كقوله:

إذا ما بخيل الناس هرت كلابُهُ	**وشق على الضيف الغريب**
فإني جبانُ الكلب بيتي موطَّأ	**جواد إذا ما النفس شح ضميرها**

وكانوا لا يقدرون شيئًا كما يقدرون الوفاء؛ فإذا وعد أحدهم وعدًا؛ أوفى به وأوفت معه قبيلته بما وعد، ومن ثم أشادوا بحماية الجار لأنه استجار بهم وأعطوه عهدًا أن ينصروه. وجعلهم ذلك يعظمون الأحلاف فلا ينقضونها مهما قاسوا بسببها من حروب. وبلغ من اعتدادهم بهذه الخصلة أن كانوا يرفعون لمن يغدر منهم لواء في مجامعهم وأسواقهم، حتى يلحقوا به عار الأبد. يقول الحادرة لصاحبته سمية:

أسُمي ويحك هل سمعتِ بغَدْرَة ... رُفِع اللواء لنا بها في مجمعِ

وليس هناك خلة تؤكد معنى العزة والكرامة إلا تمدحوا بها؛ فهم يتمدحون بإغاثة الملهوف وحماية الضعيف والعفو عند المقدرة، كما يتمدحون بالأنفة وإباء الضيم، وكيف يقبلون الضيم، وهم أهل حرب وجلاد، يقول المتلمس:

إنَّ الهوانَ حمارُ الأهل يعرفه ... والحرُّ ينكره والرَّسْلَةُ الأُجُدُ
ولا يقيم على خسف يراد به ... إلا الأذلان عير الأهل والوتد
هذا على الخسف معقول برمته ... وذا يشج فلا يبكى له أحدُ

فهم لا ينكرون شيئًا مثل إنكارهم للهوان والضيم؛ فهما السوأة الكبرى والمثلبة العظمى؛ إذ يعنيان الذل وأن القبيلة استبيحت فلم تعد تستطيع الدفاع عن كرامتها. وكل شيء إلا الهوان، وكان أقل شعور به يثيرهم، على نحو ما مر بنا من ثورة عمرو بن كلثوم على عمرو بن هند حين علم بإهانة أمه في بلاطه، وكان نازلًا معها عنده؛ فاستل سيفه وقتله، وتغنى شعراء تغلب طويلًا بهذا الحادث مفاخرين بعزتهم.

وكان للشجاعة والفروسية عندهم منزلة ليس فوقها منزلة، بحكم حروبهم الدائرة التي لا تني ولا تفتر وكان سادتهم يمثلون هذه الخصال جميعًا في أقوى صورها، مضيفين إليهاحنكة وحكمة بالغة، وقد اشتهر من بينهم حُكَّام تجاوزت ألمعيتهم حدود قبائلهم، مثل عامر بن الظَّرب وأكثم بن صيبفي، وكانت تفزع إليه القبائل في خلافاتها الكبيرة التي يصعب حلها في دائرة قبائلهم وشيوخهم، وقد يفزعون فيها إلى الكهنة والعرَّافين.

على أن هناك آفات كانت تشيع في هذا المجتمع الجاهلي لعل أهمها الخمر واستباحة النساء والقمار، ونحن نجد الخمر تجري على كل لسان، وقد اشتهر بالحديث عنها وعن كئوسها ودنانها وحوانيتها ومجالسها أعشى قيس وعدي بن زيد

العبادي الحيري، وعرض لها كثيرون في أشعارهم مفاخرين بأنهم يحتسونها ويقدمونها لرفاقهم. وأكثر من كان يتجر بها اليهود والنصارى، وكانوا يجلبونها لهم من بُصرى وبلاد الشام ومن الحيرة وبلاد العراق، ويقال إنهم كانوا يضربون خيامهم في بعض الأحياء أو في بعض القرى ويضعون فوقها راية تعلن عنهم، فيأتيهم الشباب ليشربوا وليسمعوا بعض القيان ممن يصاحبهم. وكان من الشباب من يدمن عليها حتى تنفر منه قبيلته، وقد تخلعه لما يتدنى فيه من رذائل، على نحو ما يروى عن البَرَّاض بن قيس الكناني أحد أدلاء القوافل في الجاهلية؛ إذ كان سكيرًا فاسقًا؛ فخلعه قومه وتبرأوا منه .

أما عن المرأة في العصر الجاهلي فقد كان هناك نوعان من النساء: إماء وحُراث، وكانت الإماء كثيرات، وكان منهن عاهرات يتخذن الأخدان، وقينات يضربن على المزهر وغيره في حوانيت الخمارين، كما كان منهن جوار يخدمن الشريفات، وقد يرعين الإبل والأغنام. وكن في منزلة دانية، وكان العرب إذا استولدوهن لم ينسبوا إلى أنفسهم أولادهن؛ إلا إذا أظهروا بطولة تشرفهم على نحو ما هو معروف عن عنترة بن شداد؛ فإن أباه لم يلحقه بنسبه إلا بعد أن أظهر شجاعة فائقة ردت إليه اعتباره.

وكانت الحرة تقوم بطهي الطعام ونسج الثياب وإصلاح الخباء؛ إلا إذا كانت من الشريفات المخدومات، فإنه كان يقوم لها على هذه الأعمال بعض الجواري، وتدل دلائل كثيرة على أن بنات الأشراف والسادة كان لهن منزلة سامية؛ فكن يخترن أزواجهن، ويتركنهم إذا لم يحسنوا معاملتهن وبلغ من منزلة بعض شريفاتهن أنهن كن يحمين من يستجير بهن ويرددن إليه حريته إذا استشفع بهن، على نحو ما ردت فكيهة إلى السليك بن السلكة حريته حين وقع أسيرًا في يد عشيرتها من بني عوار. وكانوا يعدونها جزء لا يتجزأ من عرضهم، ولم يكن شيءيثيرهم كسَبْي نسائهم وهم

بعيد عن الحي؛ فكانوا يركبون وراءهن كل وعر حتى يلحقوا بهن وينقذوهن ويغسلوا عار سبيهن عنهم، وهو عار عندهم ليس فوقه عار.

وكانوا يصحبونهن معهم في الحرب، وكن يشددن من عزائمهم بما ينشدن من أناشيد حماسية؛ حتى إذا قتل فارس ندبنه ندبًا حارًّا حاضات على الأخذ بثأره والانتقام من قتلته. وتلمع في هذا الجانب أسماء كثيرات على رأسهن الخنساء ومراثيها في أخويها صخر ومعاوية مشهورة. وكن يستشطن غضبًا إذا رضيت العشيرة بأخذ الدية. حقنًا للدماء وتدور في كتب الأدب قصص وأشعار كثيرة تصور هيام بعضهم بهن، وكانوا دائمًا يفتتحون قصائدهم بذكرهن وما كان لهم من ذكريات معهن في بعض المعاهد والمنازل، ويمزجون ذلك بالدموع، على نحو ما يقول امرؤ القيس في مطلع معلقته:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوي بين الدخول فحومل

فالمرأة لم تكن في الجاهلية مهملة؛ بل كان لها قدرها عندهم، كما كان لها كثير من الحرية؛ فكانت تمتلك المال وتتصرف فيه كما تشاء، وقصة اتجار الرسول صلى الله عليه وسلم في أموال السيدة خديجة أم المؤمنين مشهورة.

وقد دعم الإسلام هذه الحرية، فحرم أن تعضل المرأة وتمنع من الزواج بعد وفاة زوجها كما حرم زواج المقت، وهو أن يجمع الرجل بين أختين، وحرم الشغار، وهو أن يتزوج شخص أخت صديق له على أن يزوجه أخته، وأيضًا فإنه حرم أن يتزوج الابن امرأة أبيه بعد موته أو أن يتزوج عدة رجال امرأة واحدة؛ إلى غير ذلك مما كان يبيحونه.

وتلك كانت عادات عندهم، وهي تلازم الأمم في عصور بداوتها؛ ولكن ينبغي أن لا نفهم منها أن المرأة كانت مهدرة الحقوق في الجاهلية، أما ما سجله عليهم القرآن

الكريم من وأدهم للبنات في قوله تعالى: {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ، يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} فأكبر الظن أن من كانوا يصنعون ذلك منهم أجلاف قساة القلوب كانوا يخشون عليهن من الفقر أو السبي؛ إذ كان سباؤهن كثيرًا في الجاهلية، وكانوا يعدون ذلك سبة ما بعدها سبة.

٣- الحياة الثقافية:

قد يتبادر إلى الذهن أن عرب الجاهلية كانوا أمة منعزلة عن العالم؛ بسبب الوضع الجغرافي لشبه جزيرة العرب، التي تحيط بها الصحارى والبحار من جميع الجهات. غير أن الدراسات الحديثة قد كشفت عن خطأ هذا الاعتقاد، وأثبتت أن العرب لم يكونوا في منأى عن الحضارات الكبرى التي جاورتهم، بل اتصلوا بها وتفاعلوا معها. وكانت صلة الوصل بينهم وبينها، أولًا التجارة، ثم المدنيات العربية التي اضطلعت بها بعض الإمارات العربية المتاخمة لحدود بيزنطة وفارس، كدول الأنباط والغساسنة والمناذرة، أو بواسطة الجاليات المسيحية واليهودية التي استقرت في بعض المدن الحجازية، كيثرب ومكة ونجران.

فقد كان لوقوع مكة والمدينة على طرق القوافل التجارية أثر كبير في ازدياد أهميتهما وارتقائهما فكريا وحضاريا؛ ذلك أن أهلهما قد احتكوا بالأمم المجاورة، واعتنق بعضهم الديانات السماوية كاليهودية والمسيحية، وأصبح بعضهم يعرفون القراءة والكتابة وتقدموا فكريًّا. وعلى رأي بعض المستشرقين أن بعض أجزاء شبه جزيرة العرب قد تفاعلت مع مظاهر الحضارة الهللينية، وأن كثيرا من الأفكار.

ومن نتاج الثقافات اليونانية والرومانية، ومن العقائد المسيحية والمزدكية قد اختلطت وامتزجت فيها. وهكذا لم يبق العرب سادرين في عزلتهم، بل أخذوا بنصيب من يقظة

عارمة، زاد في وضوح معالمها وقوعهم في أطراف المدنيات الكبرى. ومن الجدير بالذكر أن من أهم النتائج الفكرية التي أسفرت عنها رحلات المكيين إلى الحيرة أنهم قد نقلوا منها حروف الهجاء، الأمر الذي استتبع نشوء الخط المعروف باسم الخط الكوفي.

يقارن الجاحظ بين العرب وغيرهم من الأمم فيقول: بأنه وإن عرف عن الهند واليونان وفارس تطرقهم إلى صنوف من العلم والفلسفة والمنطق والخطابة، إنما لم يتصفوا بالبيان وزلاقة اللسان وانثيال البديهة، بل كان ما خرج عنهم، إنما هو عن طول فكرة، وعن اجتهاد وخلوة بينما كل شيء للعرب، إنما هو بديهة وارتجال، وكأنه إلهام ليس فيه معاناة ولا مكابدة وأنهم بالرغم من كونهم أميين، كانوا مطبوعين لا يتكلفون، " تأتيهم المعاني إرسالًا، وتنثال عليهم الألفاظ انثيالًا " وأن كل ما خلفوه من شعر أو نثر لشاهد صادق على الديباجة الكريمة، والرونق العجيب، والسبك والنحت الذي لا يستطيع أشعر الناس اليوم أن يجاريه .

ويقول أحمد أمين: إن العربي الجاهلي عصبي المزاج سريع الغضب، والمزاج العصبي يستتبع عادة ذكاء. وفي الحق: إن العربي ذكي، يظهر ذكاؤه في لغته، فكثيرا ما يعتمد على اللمحة الدالة، والإشارة البعيدة، كما يظهر في حضور بديهته، فما هو إلا أن يفاجأ بالأمر فيفجؤك بحسن الجواب .

مما تقدم تتضح لنا الخطوط الأساسية لمميزات الفكر العربي في الجاهلية. فالعربي الجاهلي لم يمارس العلم، ولم تكن له فلسفة ولا منطق، إنما تميزت ثقافته بالفنون الأدبية من خطابة ونثر وأمثال وشعر، تنثال عليه المعاني انثيالًا دون تكلف. فالسليقة الشعرية فيه طبع أصيل، وقد فطر على البديهة والارتجال والإلهام. وهو ذكي سريع الخاطر يعتمد على اللمحة الدالة والإشارة البعيدة.

إن هذه الثقافة لمما يتفق مع بداوة العيش، وهي طور مر العرب فيه. والبداوة كما قال ابن خلدون في حديثه عن العرب "جيل في الخلقة طبيعي" مثلهم كمثل غيرهم من لأمم المتبدية، كالبربر والترك والأكراد، وهي حالة اجتماعية تمر فيها الأمم في طور نشوئها وارتقائها.

غير أن حالتهم الفكرية كانت من التقدم النسبي بحيث إن الدين الإسلامي بما انبثق عنه من نظم انقلابية ثورية، قد لقي استجابة منهم، فنفذ إلى قلوبهم ونقلهم بأيسر وجه إلى ميادين الحضارة، إذ تفهموا علوم اليونان والسريان وغيرهم، وتمثلوها وصهروها في بوتقة العروبة، وأقاموا على أسسها صروح حضارتهم العربية الإسلامية، التي استتمت جميع مقومات العبقرية والإلهام، وسحرت الكتاب والمستشرقين، فأفاضوا في وصفها، وتعمقوا في دراستها.

وبالرغم مما انطوى عليه العهد الجاهلي من عبادة للأوثان، ومن اعتقادات وطقوس اجتماعية بدائية جلها خرافي، فليس من العدل أن ترتسم عنه في الأذهان صورة سيئة ومشوهة، بحيث نتصوره وكأنه عهد ظلم وقاتم.

ذلك أننا لو أمعنا النظر فيما اتصل بنا من ترك الجاهلية في الأدب والشعر والنثر والخطابة والأمثال والحكم، لرأينا أنه لا يمكن أن يصدر إلا عن شعب بلغ درجة كافية من التطور الفكري، وأن اللغة التي صيغ بها، لم تكن لتبلغ ما بلغته من كمال التركيب، والغنى بالمفردات، والدقة في التعبير، والبلاغة والمقدرة على أداء المعاني، لو لم يكن قد مضى على تطورها آنذاك قرون عديدة لا ندرك مداها.

فقد قطعت شوطًا بعيدًا في التكامل والاستقرار، وبلغت في عبقرية التعبير عن المعاني بألفاظ وتراكيب توافق الجرس والحركة والإيقاع شأوًا بعيدًا، وأوفت على الكمال حتى أصبحت أتم اللغات السامية صرفا ونحوا وبلاغة.

فالشعر الجاهلي بما اشتمل عليه من رائع الوصف وجمال الصور ونبل الأخلاق والمشاعر، وما يخلب اللب من فن الإيقاع لدليل ساطع على أن قائليه قد وُهبوا قسطًا وفيرًا من رهافة الإحساس ورقة الشعور، وبرهنوا عن تقديم فني مرموق، وذوق أدبي مصقول. وعلى العموم، إننا نجد في الأدب الجاهلي شعرًا كان أو نثرًا، من المثل العليا والآراء في الحياة، ما يجعله أدبا إنسانيا خصبا وغزيرا .

أما عن الحياة الدينية في العصر الجاهلي فقد تعددت الأديان عند العرب الجاهليين، من عبادة للأصنام والأرواح والجن والجدود وما إليها، كما تسربت إليهم ديانة الفرس المزدكية والديانات التوحيدية؛ فعرفوها وتأثروا بها، ولم يظهر الإسلام إلا وكان في شبه جزيرة العرب خليط من مختلف الأديان والعقائد والنحل. ويمكن جمع معتقدات العرب قبل الإسلام في اتجاهين، أولهما: المعتقدات الوثنية، والثاني: معرفتهم عبادة الله.

وللوثنية في شبه جزيرة العرب قبل الإسلام مظاهر عديدة منها عبادة مظاهر الطبيعة، عبادة الأرواح، الاعتقاد بالجن، عبادة الأسلاف، تقديس الأشياء والأماكن "حجارة، أشجار، ينابيع"، وأخيرًا الأصنام.

وقد عرف عبادة مظاهر الطبيعة في شتى دول الجنوب العربي، التي كانت موضوع دراستنا في القسم الأول من هذا الكتاب، إذ عبد العرب الجنوبيون مظاهر طبيعية فلكية، متمثلة في القمر والشمس والزهرة، تلك الكواكب التي اعتبروها أسرة إلهية واحدة، مؤلفة من أب هو القمر، وأم هي الشمس، وابن هو عثتر "كوكب الزهرة".

وهناك من الدلائل أن العرب الشماليين أيضا قد كرسوا بعض عبادتهم للشمس والقمر، إذ اتخذوا للشمس صنمًا بيده جوهرة على لون النار وله بيت خاص، وقد وقفوا له بعض الأوقاف وجعلوا له سدنة، وكانوا يصلون للشمس ثلاث مرات في

اليوم: وقت طلوعها ووقت غروبها ووقت توسطها الفلك. واتخذوا للقمر صنمًا على شكل عجل وبيده جوهرة، يعبدونه ويسجدون له، ويصومون له أيامًا معلومة من كل شهر، ثم يأتون إليه بالطعام والشراب، فإذا فرغوا من الأكل أخذوا في الرقص والغناء والعزف بين يديه. ومن العرب من اتخذ عبادة الأصنام مثل الكواكب، وبنوا لها هياكل، وجعلوا لها عبادات خاصة .

ومن الكواكب التي عبدها عرب الشمال "النجم الثاقب" وهو كوكب "الزهرة" الذي عبده الجنوبيون باسم "عثتر" . وقد ورد ذكره في القرآن الكريم باسم "الطارق" في قوله تعالى: {وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ، النَّجْمُ الثَّاقِبُ} (الطارق: ١،٢،٣) .

وقد أدان التنزيل الحكيم عبادة الشمس والقمر في قوله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} (فصلت:٣٧) .

وفي القرآن الكريم إشارات إلى عبادة الكواكب قبل معرفة الله سبحانه وتعالى، في قصة إبراهيم عندما أنحى باللائمة على أبيه عبادته وقومه للأصنام، لكنه عندما رأى كوكبا توهم أنه الله فلما أفل انصرف عنه، وكذلك عندما رأى القمر ثم الشمس {فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ، إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِين} (الأنعام: ٧٩).

من ذلك يتضح أن أقدم عبادة هي عبادة الأصنام، وقد اختلطت بها عوامل غيبية ربطتها بالأجرام السماوية قبل معرفة عبادة الله.

الشعر الجاهلي

الشعر الجاهلي

الشعر لغة العواطف، وترجمان الأحاسيس، ويعنى بإظهار الجمال، وتصويره في صور تسحر القلوب، وتثير الوجدان، وتبعث في النفس الإعجاب والارتياح. ولذلك عد من الآداب الرفيعة، واعتبر فنًّا من الفنون الجميلة.

وقد عرف العرب منذ أقدم عصورهم قيمة الشعر وأثره في النفس، وما له من شأن عظيم في تاريخ الأمم والشعوب، بإظهار مواهبها، وسمو عواطفها، ورقة مشاعرها وتخليد أمجادها ومفاخرها فقدروا الشعر حق قدره، وعظموا الشعراء وأكبروهم فكان للشاعر أعلى منزلة في قومه.

وفي ذلك يقول ابن رشيق: كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها، وصنعت الأطعمة، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر، كما يصنعون في الأعراس ويتباشر الرجال والولدان؛ لأنه حماية لأعراضهم، وذب عن أحسابهم، وتخليد لمآثرهم، وإشادة بذكرهم. وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد، أو شاعر ينبغ، أو فرس تنتج .

وإذا كان التاريخ لا يستطيع أن يخبرنا عن أول مخترع للكتابة، فكذلك لا يمكننا أن نعرف أول من قال الشعر، لكن المؤكد أن الإنسانية في طفولتها لا بد أنها قد عبرت عن إحساساتها ومشاعرها بنوع من الكلام يخالف ما تعبر به عن حاجاتها اليومية، ومشاغلها العادية، فكان ذلك -ولا شك- شعرًا، وهو -بطبيعة الحال- كان شعرًا بدائيًّا يتناسب مع الإنسان في ذلك الطور من أطوار سيره في سبيل التقدم نحو الترقي والمدنية والتهذيب.

ولئن كانت المحاولات الشعرية الأولى قد ضاعت، فإنه يمكن أن يقال: إنه يغلب على الظن أنها كانت خالية من القيود، ومتحررة من أية التزامات في طريقة التعبير، وأساليب التصوير، ثم أخذت تتدرج وتتطور، شيئًا فشيئًا، شأنها شأن الإنسان، حتى انتهت إلى الصور التي نرى عليها الشعر الآن.

وإن كان لنا أن نتصور بدءًا للشعر العربي فربما ساغ لنا أن نقول: إن أول خطوة خطاها في سبيل الشعر الموزون المقفى كانت متمثلة في الأسجاع بين جملتين، ثم بين أكثر من جملتين وبعدها كان تساوي الفواصل في هذه الأسجاع، ثم أخذ المنشئ يخضع هذا التساوي بين الفواصل شيئا فشيئًا لأقيسة التفاعيل، فتحقق له الوزن في البيت الواحد، مع اتحاد الحرف الأخير في الشطرين.

ثم تلا ذلك التقيد بحرف القافية في الأعجاز، مع التحرر منه في الصدور، وعلى توالي الزمن تنوعت الأوزان وطالت القطع الشعرية، مع اتحاد القافية، ثم أخذت القطع تطول شيئًا فشيئًا حتى أصبحت قصائد.

ويقال: إن أقدم الأوزان الرجز؛ لأنه أبسطها، وفيه كل بيت ينفرد بقافية خاصة، ومما قيل في نشأة الأوزان، إنها في الأصل مأخوذة من توقيع سير الجمال في الصحراء، وتقطيعه يوافق وقع خطاها، فكانوا يقولون كلمات موزونة لسوق الإبل، وهو الحداء، ولكن إذا قيل ذلك في الحال عند العرب، فكيف يقال عن سواهم من الأمم ممن ليس لديهم إبل؟

ومن ثم يبدو أن الأقرب إلى الواقع والخيال، أن ذلك ربما كان مصدره الملاحظة الدقيقة لظواهر الحياة والحالات النفسية والمختلفة، فكثيرًا ما يرى الإنسان وما يفعل أشياء منتظمة الوقع، مرتبة المقاطع، ومتساوية الأجزاء.

كما أنه كثيرًا ما يوقع أصواته توقيعًا موسيقيًّا متناسقًا، ولعل حركات الإبل كانت من بين الظواهر الكثيرة التي ساعدت العربي على التنظيم الموسيقي في الشعر فهناك بجانبها مثلًا: وقع أقدام الخيل، وحفيف الشجر، وصفير الرياح، وهديل الحمام، وتغريد الطيور، ثم العامل الأساسي، وهو ميل الإنسان بفطرته إلى سماع النغم الرتيب، واللحن الجميل، مما يشنف الآذان، ويشيع البهجة والنشوة في الجسم والروح، ولعل هذا هو السبب في ميل الإنسان بطبيعته إلى الغناء.

ولذلك يرى بعض الباحثين أن الشعر والغناء من أصل واحد عند جميع الأمم، وأن الشعر وضع أولًا للتغني به، حتى إن اليونان والرومان يقولون: "غنى شعرًا " وليس "نظم شعرًا"، والعرب يقولون " أنشد شعرًا "، أي "غناء" ولا شك أن الإنشاد فيه لحن مطرب، ويقال: إن الرشيد كان يطرب للإنشاد أكثر مما يطرب للغناء، وعلى كل، فمما لا شك فيه أن الصلة وثيقة بين الشعر والغناء، ففي كل منهما لحن جميل، ومقاطع موسيقية منتظمة، وإذا غني الشعر كان أكثر جمالًا وأعذب سمعًا.

ومن طبيعة الشعر الوزن، وتتعدد أوزانه في كل أمة تبعًا لذوقها الفني في ذلك. وإذا نظرنا في الأوزان التي وردت في الشعر الجاهلي الذي يعتبر أقدم ما بقي من الشعر العربي، نجد أنه جمع منها عددًا كبيرًا، وفي صور شتى، منها الطويل ومنها القصير، ومنها ما بين هذين، وعدد الأوزان التي استخرجها الخليل بن أحمد من الشعر الجاهلي، خمسة عشر وزنًا، أضاف إليها أبو الحسن الأخفش واحدًا آخر، وهذا العدد كبير إذا نحن قارناه بعدد الأوزان الشعرية في الآداب الأخرى.

ولا شك أن ذلك يدل على اتساع الذوق الفني والأفق الحسي عند العربي القديم، كما أنه يدل على أن الشعر العربي – في مرحلته التي انتهى بها إلى الحالة التي عليها الشعر الجاهلي– كان حتمًا قد استغرق زمنًا طويلًا مر خلاله بتجارب كثيرة،

ومحاولات عديدة، استطاع فيها أن يتم ويكتمل، ويبني هذه الصور الموسيقية المختلفة، وهذا دليل آخر على أن الشعر العربي عريق، لا يقف عمر أقدمه على مائتي سنة قبل الإسلام، إنما هو موغل في الزمن، ومنحدر من أصول سحيقة في القدم.

والشعر الجاهلي ليس فيه شيء من نوع الشعر القصصي Epic ولا الشعر التمثيلي Dramatic وإنما هو من النوع الغنائي Lyric فهو شعر غنائي يهتم بتصوير نفسية الشخص، وما يتصل به من وجدان وعاطفة، وصاحبه يتغنى بحبه وبغضه، وأمله وألمه، وغير ذلك من المشاعر المختلفة التي يحسها الإنسان، وعدم وجود الشعر القصصي أو الشعر التمثيلي بين الجاهليين العرب ليس فيه شيء عليهم من الناحية الفنية، وذلك لا يعني بحال نقصًا في شاعريتهم، أو غضًّا من مقدرتهم الأدبية لأن الشاعرية لا تقاس بالنوع فقط، إنما تقاس كذلك بالدرجة التي بلغتها الأمة في الناحية التي تهيأت لها، فيقال: أوصلت درجة الكمال فيها أم لا؟

وإذا لم تتهيأ لأمة من الأمم الظروف المناسبة لشيء من الأشياء، فلا ينبغي أن تحاسب عليه. والجاهليون لم توجد لهم الأسباب التي تدعو لقول الشعر القصصي أو الشعر التمثيلي، فلم يأت لهم فيهما شيء. وجاء شعرهم كله من النوع الغنائي. وقد بلغوا في هذا النوع درجة ممتازة، وذلك لعوامل كثيرة ساعدتهم على ذلك.

وأهم هذه العوامل: صفاء البيئة التي كان يعيش فيها العربي، مما جعله يحس الجمال الطبيعي، ثم الحرية التي كان يتمتع بها، وحبه لشخصيته، وتعصبه لقبيلته التي هي عماده وملاذه، والاستقلال الذي كانت تتمتع به البلاد، والحروب التي كانت تنشب بينهم، وما كان يتسبب عنها من آثار تلهب العواطف، وتثير المشاعر، هذا إلى ما كانت تتطلبه صِلاتهم ومجتمعاتهم الخاصة والعامة من رصين الشعر،

والتنافس بين الأفراد والقبائل في ميادين الفصاحة والبيان، وما كان يقام من مباريات الشعر، ومجالس النقد، وما كان يناله الشعراء الممتازون من تقدير وتكريم.

ملامح عن الشعر الجاهلي

١- نشأة الشعر الجاهلي وتفاوته في القبائل:

لا ريب في أن المراحل التي قطعها الشعر العربي حتى استوى في صورته الجاهلية غامضة؛ فليس بين أيدينا أشعار تصور أطواره الأولى؛ إنما بين أيدينا هذه الصورة التامة لقصائده بتقاليدها الفنية المعقدة في الوزن والقافية وفي المعاني والموضوعات وفي الأساليب والصياغات المحكمة، وهي تقاليد تلقي ستارًا صفيقًا بيننا وبين طفولة هذا الشعر ونشأته الأولى؛ فلا نكاد نعرف من ذلك شيئًا.

وحاول ابن سلام أن يرفع جانبًا من هذا الستار فعقد فصلًا تحدث فيه عن أوائل الشعراء الجاهليين، وتأثر به ابن قتيبة في مقدمة كتابه الشعر والشعراء، فعرض هو الآخر لهؤلاء الأوائل، وهم عندهما جميعًا أوائل الحقبة الجاهلية المكتملة الخلق والبناء في صياغة القصيدة العربية، وكأن الأوائل الذين أنشأوا هذه القصيدة في الزمن الأقدم ونهجوا لها سننها طواهم الزمان. وفي ديوان امرئ القيس.

عُوجا على الطلل المحيل لأننا نبكي الديار كما بكى ابن خذام

ولا نعرف من أمر ابن خذام هذا شيئًا سوى تلك الإشارة التي قد تدل على أنه أول من بكى الديار ووقف في الأطلال.

وتتراءى لنا مطولات الشعر الجاهلي في نظام معين من المعاني والموضوعات؛ إذ نرى أصحابها يفتتحونها غالبًا بوصف الأطلال وبكاء آثار الديار، ثم يصفون رحلاتهم في الصحراء وما يركبونه من إبل وخيل، وكثيرًا ما يشبهون الناقة في سرعتها ببعض الحيوانات الوحشية، ويمضون في تصويرها، ثم يخرجون إلى الغرض من قصيدتهم مديحًا أو هجاء وفخرًا أو عتابًا واعتذارًا أو رثاء. وللقصيدة مهما طالت

تقليد ثابت في أوزانها وقوافيها؛ فهي تتألف من وحدات موسيقية يسمونها الأبيات وتتحد جميع الأبيات في وزنها وقافيتها وما تنتهي به من رَوِيّ.

٢- الشعر الجاهلي شعر غنائي:

من المعروف أنه يوجد عند الغربيين منذ اليونان أنواع مختلفة من الشعر، يردها نقادهم إلى أربعة أضرب: شعر قصصي وتعليمي وغنائي وتمثيلي، ويمتاز الضرب الأول بأن قصائده طويلة؛ فالقصيدة منه تمتد إلى آلاف الأبيات، وتتوالى فيه حلقات من الأحداث تنعقد حول بطل كبير، وقد يوجد بجانبه أبطال، ولكن أدوارهم ثانوية.

وهي في حقيقتها قصة؛ إلا أنها كتبت شعرًا، فالتسلسل القصصي فيها دقيق والانتقال بين أجزائها منطقي محكم، وهي قصة تفسح للخيال مجالًا واسعًا، ولذلك كانت تكثر فيها الأساطير والأمور الخارقة، وكانت الآلهة تظهر فيها عند اليونان بدون انقطاع.

وخير ما يمثلها عندهم الإلياذة لهوميروس وقد نقلها إلى العربية منذ فاتحة هذا القرن سليمان البستاني، ولكثير من الأمم القديمة والحديثة قصائد قصصية تشبهها؛ فللرومان الإليادة لفرجيل، وللهنود الرامايانا والمهابهاراتا وللفرس الشهنامة للفردوسي وللألمان أنشودة الظلام وللفرنسيين أنشودة رولان.

والشاعر في هذا الضرب القصصي لا يتحدث عن عواطفه وأهوائه؛ فهو شاعر موضوعي ينكر نفسه، ويتحدث في قصته عن بطل معتمدًا على خياله، ومستمدًّا في أثناء ذلك من تاريخ قومه، وكل ما له أنه يخلق القصة ويرتب لها الأشخاص والأشياء، ويجمع لها المعلومات، ويكون من ذلك قصيدته، وعادة ينظمها من وزن واحد لا يخرج عنه.

ولم تعرف الجاهلية هذا الضرب من الشعر القصصي، وهي كذلك لم تعرف الضرب الثاني من الشعر التعليمي الذي ينظم فيه الشاعر طائفة من المعارف على نحو ما نعرف عند هزيود الشاعر اليوناني وقصيدته "الأعمال والأيام" التي يصور فيها فصول السنة والحياة الريفية، وعند هوراس الشاعر الروماني في قصيدته " فن الشعر" التي نظمها في قواعد الشعر ونقده، وكما هو معروف عن أبان بن عبد الحميد شاعر البرامكة في قصيدته التي نظم فيها أحكام الصوم والزكاة.

وكذلك لم يعرف الجاهليون الشعر التمثيلي الذي يعتمد على مسرح وعلى حركة وعمل معقد وحوار طويل بين الأشخاص، تتخلله مشاهد ومناظر مختلفة.

فهذه الضروب الثلاثة من الشعر لم يعرفها الجاهليون، فشعرهم منظومات قصيرة فلما تجاوزت مائة بيت، وهو شعر ذاتي يمثل صاحبه وأهواءه، على حين الضروب السابقة جميعًا موضوعية؛ فالشاعر فيها لا يتحدث عن مشاعره وأحاسيسه؛ إنما يتحدث عن أشياء خارجة عنه، سواء حين يقص أو حين يعلم أو حين يمثل؛ فهو في كل ذلك يغفل نفسه ولا يقف عندها؛ إنما يقف عند جانب قصصي تاريخي يحكيه أو علمي تهذيبي يرويه أو تمثيلي مسرحي يؤديه، متجردًا عن شخصه وما يتصل بذاته وأهوائه وعواطفه.

ولكن إذا كان الشعر الجاهلي يختلف عن ضروب الشعر الغربية القصصية والتعليمية والتمثيلية؛ فإنه يقترب من الضرب الرابع الغنائي؛ لأنه يجول مثله في مشاعر الشاعر وعواطفه، ويصوره فرِحًا أو حزينًا. وقد وجد من قديم عند اليونان؛ إذ عرفوا المدح والهجاء والغزل ووصف الطبيعة والرثاء، وكان يصحب عندهم بآلة موسيقية يعزف عليها تسمى **Lyre** ومن ثم سموه **Lyric** أي غنائي.

وإذن نحن لا نبعد حين نزعم أن الشعر الجاهي جميعه غنائي؛ إذ يماثل الشعر الغنائي الغربي من حيث إنه ذاتي يصور نفسية الفرد وما يختلجه من عواطف وأحاسيس؛ سواء حين يتحمس الشاعر ويفخر أو حين يمدح ويهجو أو حين يتغزل أو يرثي أو حين يعتذر ويعاتب، أو حين يصف أي شيء مما ينبثُّ حوله في جزيرته.

وليس هذا فحسب، فهو يماثل الأصول اليونانية للشعر الغنائي الغربي من حيث إنه كان يغني غناء، ويظهر أن الشعراء أنفسهم كانوا يغنون، فهم يروون أن المهلهل غنى في قصيدته:

طفلة ما ابنة المحلَّل بيضا ... ء لعوبٌ لذيذة في العناقِ

ومعنى ذلك أن الشعر الجاهلي ارتبط بالغناء عند أقدم شعرائه. ومن حين إلى حين نجد أبا الفرج الأصبهاني يشير إلى أن شاعرًا جاهليًّا تغنى ببعض شعره من مثل السُّلَيْك بن السُّلَكة وعلقمة بن عبدة الفحل والأعشى، وكان يوقِّع شعره على الآلة الموسيقية المعروفة باسم الصنج، ولعله من أجل ذلك سمي صنَّاجة العرب.

٣- موضوعات الشعر الجاهلي:

كان لمظاهر البيئة الجاهلية أثر واضح في ذات الشاعر الجاهلي، فقد حركت وجدانه، وألهبت عواطفه، وأثارت مشاعره، فانطلق لسانه مصورًا خلجات نفسه، ونبضات حسه في شتى المناسبات، فجاء الشعر الجاهلي حافلًا بمختلف العواطف الإنسانية، ومن دراسة هذا التراث الشعري، نجد أنهم تغنوا بطيب أعراقهم، ومكارم أخلاقهم، وأشادوا بأبطالهم وخلدوا أيامهم وأمجادهم، وتعالوا بما أحرزوه من نصر وغنائم، وغالوا في الحديث عن هزائم أعدائهم، وما نالهم من خسائر في الأرواح والأموال، وما كبلوا فيه من سلاسل وأغلال .

وقد تعددت موضوعات القصيدة الواحدة في الشعر الجاهلي " فلا نجد الشاعر يؤلف قصيدته في غرض واحد من هذه الأغراض، فيندر أن نجد قصيدة، وبخاصة تلك الطوال، تتكون من غرض واحد، بل إن كل قصيدة كانت في معظم الأحوال تتألف من الحديث في أكثر من فن واحد من هذه الفنون، فتحتوي القصيدة الواحدة مثلًا على الغزل والوصف، والفخر والهجاء، والوعيد، وقد تشتمل على أغراض أكثر من هذه، كل ذلك راجع لهوى الشاعر، وطواعية الشاعرية له، والمثيرات التي تهيج عاطفته، أو تحرك مشاعره في عدة موضوعات، ثم يربط بين هذه الموضوعات بما يراه مناسبًا، فتجيء القصيدة الواحدة متعددة الموضوعات والأغراض.

ولعل تقسيم الشعر العربي إلى موضوعات يعود إلى أبي تمام المتوفى سنة ٢٣٢ للهجرة وهو أقدم من حاول تقسيم الشعر العربي جاهليًّا وغير جاهلي إلى موضوعات ألف فيها ديوانًا، وقد نظمه في عشرة موضوعات، هي الحماسة، والمراثي، والأدب، والنسب، والهجاء، والأضياف ومعهم المديح، والصفات، والسير، والنعاس، والملح، ومذمة النساء.

وقسم قدامة بن جعفر في كتابه نقد الشعر هذا الفن على ستة موضوعات، فيما يسمى بالنعوت وهي المديح والهجاء والنسيب والمراثي والوصف والتشبيه .

وجعل ابن رشيق موضوعات الشعر في كتابه العمدة تسعة ، وهي النسيب، والمديح، والافتخار، والرثاء، والاقتضاء والاستنجاز، والعتاب، والوعيد والإنذار، والهجاء، والاعتذار.

الوصف :

لقد أحاط الشاعر الجاهلي في الوصف بمتغيرات البيئة التي كان يعيش فيها فوصف الطبيعة الحية والصامتة والساكنة والمتحركة فصور الصحراء وما فيها من جماد وحيوان وما يعتريها من رياح وسحب وأمطار وظواهر المناخ المختلفة، وغير ذلك بحيث يمكن القول معه بأن الشاعر الجاهلي قد صور البيئة العربية تصويرًا عامًّا استوعب فيه جميع ظواهر الحياة في ذلك العصر فمثلًا في وصف الصحراء وما بها، يقول عميرة بن جمل:

لا يا ديار الحي بالبردان   **خلت حجج بعدي لهن ثمان**
فلم يبق منها غير نؤي مهدم   **وغير أوارٍ كالركي دفان**
وغير حطويات الولائد ذعذعت   **بها الريح والأمطار كل مكان**
قفار مروراة يحار بها القطا   **يظل بها السبعان يعتركان**
يثيران من نسج التراب عليهما   **قميصين أسماطًا ويرتديان**
وبالشرف الأعلى وحوش كأنها   **على جانب الأرجاء عوذ هجان**

يبدأ الشاعر كعادة القدماء بالوقوف على ديار المحبوبة التي تركها، فيصف المكان الذي كانت تسكنه، وما صارت عليه من تهدم، فقد صار قطعة من الصحراء المقفرة المهجورة، ولم يبق به إلا آثارهم المتهدمة وبقايا أطلال امحت وتهدمت ، وقليل من

الأحطاب فرقتها الريح والأمطار في كل مكان، وقد عم السكون المكان وحلت مكانهم الرهبة والفزع، وطمست معالمه وضاعت منه جميع آثار الحياة حتى أصبح متاهة، يضل بها الساري، ولو كان أخبر الناس بالطرق والجهات، وصار مأوى للسباع المفترسة، وقد خلا من الماء والرزق، حتى إن الحيوانات الضارية لا تجد ما تقتات به، فيتعارك كل منها مع الآخر، ويفترس القوي الضعيف، وقد امتلأت جميع البقاع، وبخاصة الأماكن المرتفعة، بالوحوش الضارية التي اتخذتها لها دارًا تقيم فيها هي وأولادها .

الغزل:

يعد الغزل فنا مطروقا من جميع الشعراء على مر العصور، فالغزل والنسيب، والتشبيب، أهم الأغراض وألصقها بالغريزة، أنماط الغزل في الجاهلية، غزل المحاسن والمفاتن، الغزل الماجن، غزل الكهول.

والغزل غرض شائع بين شعراء العصر الجاهلي وسنة متبعة لم تتخل عنها المطالع الجاهلية فقد تغنوا به جميعًا. فاتخذوه حلية لقصائدهم. وزينة لأشعارهم، إذ جعلوه افتتاحيتهم على الدوام، كأنما كان ألذ المشهيات يتناولها الآكل في بدء طعامه، لتتفتح شهيته، وتزداد رغبته في الطعام، فيقبل على الأكل بشغف، ويحس فيه اللذة والمتعة ... والغزل في الآداب كلها، حديث الهوى والحب، وتصوير عواطف الرجل ومشاعره نحو المرأة، التي رأى فيها تمثالًا للجمال الإنساني، وهي في الوقت ذاته نصفه الذي يكمل حياته، وبها يتم ما يتمناه من راحة واستقرار وسعادة.

وهناك نوعان من الغزل: الحضري والعذري، فالحضري هو ما يصف مغاتن المرأة الجسمية، أما الغزل العذري ويرجع مسماه إلى قبيلة بني عذرة إلى الغزل العفيف الذي يصف محاسن المرأة المعنوية.

ومع أن السمة العامة للغزل الجاهلي كانت الناحية الحسية، من وصف الجسد، وأعضائه، وما تتصف به الحبيبة من جمال خلقي، فإننا نجد من بين الشعراء الجاهليين من أعجب بجمال المرأة الخلقي، فأطرى ما تتمتع به من كريم الصفات، وحسن الطبع، وجميل العادات من ذلك ما ورد للشنفرى إذ يقول:

فيا جارتي وأنت غير مليمة	**إذا ذكرت، ولا بذات تقلت**
لقد أعجبتني، لا سقوطًا قناعها	**إذا ما مشت، ولا بذات تلفت**
تبيت بعيد النوم تهدي غبوقها	**لجارتها إذا الهدية قلت**
تحل بمنجاة من اللوم بيتها	**إذا ما بيوت بالمذمة حلت**
كأن لها في الأرض نسيًا تقصه	**على أمها وإن تكلمك تبلت**
أميمة لا يخزى ثناها حليلها	**إذا ذكر النسوان عفت وجلت**
إذا هو أمسى آب قرة عينه	**مآب السعيد لم يسل أين ظلت**
فدقت وجلت واسبكرت وأكملت	**فلو جن إنسان من الحسن جنت**

قال الأصمعي: هذه الأبيات أحسن ما قيل في خفر النساء وعفتهن" ففي المقطوعة السابقة يشير الشنفرى إلى محبوبته بأنها حسنة الخلق جميلة، وجمالها يفوق الوصف، لدرجة أن تمام الجمال لو كان يسبب لصاحبه الجنون، لكانت قد جنت من حسنها الكامل.

وهو في الأبيات يعجب بأخلاقها وصفاتها وشمائلها، فهي كاملة في كل شيء، ليس من أفعالها ما تستحق عليه أدنى لوم، وليس في طبيعتها أو أخلاقها ما يغضب الآخرين، بل كل أفعالها، وأقوالها، وأخلاقها محمودة فأحبها جميع الناس، وهي تمتاز بالحياء الكامل فهي في غاية الحشمة والأدب، إذا مشت لا تكون متبهرجة ولا متبرجة، فتحافظ على قناعها، ولا تتلفت في أي اتجاه، وهي كريمة تؤثر جيرانها على نفسها، وتحافظ في إهدائها على كرامة من تقدم له الهدية، فتقدم أعز ما لديها

لجارتها، في وقت لا يراها فيه أحد، وبيتها كله طهارة وشرف، فهي تتصف بالعفة والنقاء، وفي منتهى البعد عن أدنى شبهة أو ظن، ويبدو حياؤها واضحًا في مشيها، فهي إذا مشت، لا تنظر إلا أمام قدمها، كأنها من شدة حيائها تبحث عن شيء ضاع منها، ولا تتحدث عن زوجها إلا بكل ما يصوره عظيمًا كريمًا. وسيرتها حلوة، ودرجتها عالية بين قريناتها، وهي في معاملتها لزوجها في منتهى الكمال، لا تبرح بيتها إلا بعلمه، وتتحرى ما يرضيه ويسره، وتعامله في غيبته كما لو كان موجودًا، وعند عودته إليها يعود وقلبه متلهف لرؤيتها؛ لأنه يحس السعادة الحقيقة في وجوده معها.

الفخر والحماسة:

أما الفخر والحماسة عند الجاهليين يقوم عادة على التغني بالبطولة والشهامة، وكثرة الحروب، وشن الغارات، والنصر والغلبة، والقوة وستجد هذا الفخر وما يطوى فيه من حماسة يدور على كل لسان، وستجد الشارع فيه يتحدث دائمًا عما تعتز به قبيلته من الأخذ بأوتارها ومن تضييق الخناق على أعدائها، وهو يعدد أيامها مشيدًا بحسبها ونسبها وصبرها في الملمَّات وكرمها في الجدب وحمايتها للجار وإغاثتها للملهوف. وفي أثناء ذلك يصوِّب سهام الهجاء إلى نحور أعدائهم، وكأنه يريد أن يقضي عليهم قضاء مبرمًا.

ويكون عادة بادعاء أشياء للنفس أو للقبيلة ليست في متناول الجميع بيسر وسهولة، وهو في الشعر الجاهلي نوعان: شخصي وقبلي، ومن خير الأمثلة له: معلقة عمرو بن كلثوم ومعلقة الحارث بن حلزة وهما في الفخر القبلي، ومعلقة طرفة ومعلقة عنترة، وهما في الفخر الشخصي، والنوعان في معلقة لبيد، وقد ورد الفخر في كثير من القصائد للشعراء المذكورين من أصحاب المعلقات وغيرهم. مثل عامر بن

الطفيل، وعبيد بن الأبرص، وسلامة بن جندل، والحصين بن الحمام، وفي أشعار كثير غير هؤلاء، بل إن كل شاعر جاهلي تقريبًا لا يخلو شعره من الفخر.

ويرجع هذا الغرض إلى طبيعة المجتمع القبلي وأثرها القوي في نزوع الشاعر الجاهلي إلى الفخر. ففي هذا المجتمع البدوي يقدر الناس الحمية والأنفة والعزة وقوة العضل والعصب، والصبر على المكاره، ويتغنون بالشجاعة والاندفاع وحماية العرض، والذود عن الحمى، فتتحول هذه المعاني والقيم إلى دستور أو ما يشبه الدستور يلتزمه البدو ويتواضعون على الأخذ به ويعد الفخر غرضا مرتبطا بغريزة البقاء، والصراع في سبيل الحفاظ على الحياة .

ومن أمثلة الفخر والحماسة قول عمرو بن كلثوم :

وَرِثنا المَجدَ، قد عَلِمتْ مَعَدٌّ، … نُطاعِنُ دُونَهُ حتى يَبِينَا

نحن إذا عِمادُ الحَربِ خَرّتْ … على الأحفاض، نَمنَعُ مَن يَلينا

نَعُمّ أُناَسَنا، وَنَعِفُّ عَنهم … وَنَحمِلُ عَنْهُمُ ما حَمَّلُونَا

نُطاعِنُ ما تَراخَى النّاسُ عنّا، … ونَضرِبُ بالسّيوفِ، إذا غُشِينَا

سُمرٍ مِنْ قَنَا الخطيّ لُدْنٍ، … ذَوابِلَ، أَو بِبِيض يَعْتَلِينَ

نَشُقّ بها رُؤوسَ القَومِ شَقّاً، … ونَخْتَلِبُ الرّقابَ فَيَخْتَلِينَ

تَخَالُ جَماجِمَ الأبطالِ مِنْهُمْ … وُسُوقاً بالأماعِزِ يَرْتَمِينَ

كَأَنَّ ثِيابَنا مِنّا وَمِنْهُم … خُضِبْنَ بِأُرْجُوانٍ أَو طُلِينَ

وفي الأبيات السابقة يفخر عمرو بن كلثوم بأجاد قومه أمام عمرو بن هند ويصفهم في خوض المعارك والقتال ويمجد من بطولاتهم وفتكهم بالأعداء.

الهجاء :

هو حرب كلامية يذم فيها الهاجي خصمه ويذكر فيها عيوبه ومساوئه وكان الهجاء على عكس الفخر، يعددون فيه عيوب الخصوم والأعداء، فيذكرون ما في تاريخهم من مخازٍ، وما نزل بهم من هزائم، وما حل بهم من خسائر أو عار، ويرمونهم بأقبح العادات، وذميم الصفات، وكثيرًا ما كان يتخلل هجاءهم وعيد وتهديد، وقد كان الهجاء يوجه إلى الأعداء في معرض الفخر، أو في ثنايا المدح؛ لأن في تحقير الأعداء والحطة من شأنهم رفعة للمفتخر أو للممدوح. وكان من أبرز ما هجا به الشعراء في العصر الجاهلي هجاء طرفة بن العبد لعمرو بن هند وأخيه قابوس يقول:

فليتَ لنا، مَكانَ المَلْكِ عَمْرٍو ... رَغُوثاً حَولَ قُبّتِنَا تَخورُ

مِنَ الزَّمِرَاتِ، أسْبَلَ قادِماها ... وضَرّتُها مُرَكَّنَةٌ دَرُورُ

يُشارِكُنا لنا رَخِلانِ فيها ... وتعلوها الكباشُ، فما تَنُورُ

لَعَمْرُكَ! إنَّ قابوسَ بنَ هِنْدٍ ... لَيَخْلِطُ مُلْكَهُ نُوكٌ كثيرُ

قَسَمْتَ الدّهْرَ في زَمَنٍ رَخيٍّ ... كذاكَ الحُكْمُ يَقْصِدُ أوْ يَجورُ

لنا يومٌ، وللكِرْوانِ يومٌ ... تَطِيرُ البائِساتُ ولا نَطِيرُ

فأمّا يَوْمُهُنّ، فيَوْمُ نَحْسٍ ... تُطَارِدُهُنّ بالحَدَبِ الصّقُورُ

وأمَّا يومُنا، فنظلُّ ركباً ... وُقوفاً، ما نَحُلُّ وما نَسِيرُ

وقد كان عمرو بن هند أخو قابوس بن هند ملكًا على الحيرة. وكان عمرو شديدًا، وكان له يوم بؤس، ويوم نعمى، فيوم يركب في صيده يقتل أول من لقي، ويوم يقف الناس ببابه، فإن اشتاق حديث رجل أذن له، فهجاه طرفة.

المدح:

كان المدح في الجاهلية من الأبواب الرئيسة لاتصاله بالحياة القبلية، فقد كان على الشاعر أن يدافع عن أعراض قومه، ويمدح ساداتهم وفرسانهم، ويطري فضائلهم ويمجد أعمالهم،ولذلك كانت القبيلة تغتبط وتتباشر إذا نبغ شاعر فيها، وإن لم يكن من الفرسان؛ لأنحماية الأعراض والأحساب لا تقل شأنًا عن حماية الأرواح والأموال، ولا تلحق الشاعر غضاضة من هذا المدح؛ لأن مفاخر القبيلة — وهو منها — تعود إليه كما تعود إلى غيره من أبنائها، فخليق بهذا المدح أن يُعدَّ من الفخر، فما كان عمرو بن كلثوم في معلقته إلا مفاخرًا بقومه، مدافعًا عنهم .

والشعراء الجاهليون كانوا يمدحون إشادة بعظيم، أو إعجابًا وإكبارًا لعمل جليل. أو اعترافًا بصنع جميل، أو رغبة في معروف، أو حبًّا في العطايا والمنح، وكانت المعاني التي تردد في المدح من بين تلك التي يتغنون بها في الفخر.

وقد يكون الشاعر الجاهلي مضطرا كغيره من البدو إلى الترحل والنزول على قبيلة غريبة، ضيفًا أو جارًا، فتحسن وفادته، وتبالغ في قِراه وإيناسه، أو تجيره وتؤمنه في خوفه، وتساعده على حاجته، فيرى من واجبه أن يشكر لها صنيعها، ويمدح السيد الذي أضافه أو أغاثه، وهذا لا يُعد من باب التكسب، وإنما هو شكر على معروف، لا استجداء لصلة، كما مدح امرؤ القيس القبائل التي كانت تضيفه أو تجيره بعد مقتل أبيه. فقال في المعلى التيمي حين أجاره من المنذر بن ماء السماء :

كأني إذ نزلت على المعلى	**نزلت على البواذخ من شام**
فما ملك العراق على المعلى	**بمقتدر ولا الملك الشامي**
أقر حشا امرئ القيس بن حجر	**بنو تيم مصابيح الظلام**

لأن المعلى أحسن إليه وأجاره حين طلبه المنذر بن ماء السماء، لقتله بني أبيه الذين قتل بدير مرينا، فقيل لبني تيم " مصابيح الظلام " من ذلك اليوم لبيت امرئ القيس.
وقال أيضاً لسعد بن الضباب:

سأجزيك الذي دافعت عني   وما يجزيك عني غير شكري

فأخبره أن شكره هو الغاية في مجازاته كما قدمت.

ولكن جاء النابغة الذبياني؛ " فمدح الملوك، وقبل الصلة على الشعر، وخضع للنعمان بن المنذر، وكان قادراً على الامتناع منه بمن حوله من عشيرته أو من سار إليه من ملوك غسان، فسقطت منزلته، وتكسب مالاً جسيماً، حتى كان أكله وشربه في صحاف الذهب والفضة وأوانيه من عطاء الملوك.. وتكسب زهير بن أبي سلمى بالشعر يسيراً مع هرم بن سنان.

وعلى هذا يتبين أن تعدد أغراض المديح، كانت للشكر أو للتكسب أو الخوف من الحاكم .

الرثاء:

والرثاء مثيل المديح، فهو مدح محاسن الميت يقول ابن رشيق: وليس بين الرثاء والمدح فرق؛ إلا أنه يخلط بالرثاء شيء يدل على أن المقصود به ميت مثل " كان " أو " عدمنا به كيت وكيت " وما يشاكل هذا وليعلم أنه ميت وسبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجع، بين الحسرة، مخلوطاً بالتلهف والأسف والاستعظام، إن كان الميت ملكاً أو رئيساً كبيراً.

وقد تميز الرثاء في العصر الجاهلي بالتفجع والحسرة " فكان الحزن يبدو عليهم واضحًا حينما يفقدون عزيزا – وكل أفراد العشيرة عزيز– فتتحرك الشاعرية، وتعبر

عن الأسى العميق الذي عمهم والخسارة الفادحة التي نزلت بهم وبغيرهم ممن كان الفقيد ملاذًا لهم. من ذلك.

ومن أشهر ما قيل في الرثاء في العصر الجاهلي مرثية الخنساء تماضر بنت عمرو في أخيها صخر:

أعينـــــيّ جـــــودا ولا تجمــــــدا	**ألا تبكيــــان لصـــــخر النّــــدى؟**
ألا تبكيــــان الجـــريء الجـــواد	**ألا تبكيـــــان الفتـــــى السّــــيّدا؟**
طويــــل النّجـــاد رفيـــع العمــــا	**د، ســـــاد عشــــيرته أمــــــردا**
يحمّلـــــه القـــوم مــــا غــــالهم	**وإن كــــان أصــــغرهم مولـــــدا**
جمـــــوع الضّـــيوف إلـــى بابـــه	**يـــرى أفضـــل الكســـب أن يحمـــدا**

لقد جعلته ساد حدثاً ووكدت ذلك وزادت فيه وأوضحته ،وقرنت له المجد بالحمد.

وكان سبب ميتة أخيها صخر أنه شهد حرباً فأبلى فيها وتقدم، فحمل عليه رجل من القوم فطعنه في خاصرته، فتحامل في الجراحة فجوي منها ولم يفصد فخرج منها كمثل اليد، وأضنته حولاً أو حولين لا ينبعث، فسمع من يسأل امرأته عن علته، وأين بلغت منه، فقالت امرأته قولاً يدل على البرم به، والملل لصحبته: لا حي يرجي، ولا ميت فيحتسب.

الاعتذار:

أما الاعتذار فكان قليلًا في شعرهم، لأنفة العربي من الذل والاعتذار، ويأتي الاعتذار عادة لإظهار الندم على فعل حدث. أو حال وقعت، ويريد المعتذر أن يبرئ نفسه، لينجو من اللوم، أو يحاول إصلاح الحال، بتفسير أو شرح معقول لها، لكي يرجع الأمور إلى مجراها العادي، وقد ورد في هذا الغرض أبيات لكثير من الشعراء، ولكنه لم يحتل مكانًا هامًّا في شعر كل منهم.

ولم يكن لأحد من الشعراء الجاهليين باع في الاعتذار إلا النابغة الذبيان، وكان أكثر ما يفد إلى النعمان بن المنذر ملك الحيرة " إلى أن وشى به الواشون إلى النعمان، فغضب النعمان عليه وتوعده، فهرب النابغة إلى قومه في نجد، ثم شخص إلى الغساسنة في الشام ومدحهم. وظل مقيمًا عندهم وفي نفسه استرضاء النعمان، والعودة إلى الحيرة، حتى تمكن من ذلك بواسطة اثنين من بني فزارة. فعاد إلى النعمان، وقدم له اعتذارياته المشهورة.

يقول النابغة في عينيته مقدما اعتذارية اعتبره النقاد مبدع هذا الفن:

أتاني أبَيْتَ اللَّعْنَ أنّكَ لُمْتَني ... وتلك التي تَسْتكُّ مِنها المَسامِعُ

مقالةُ أنْ قدْ قلْتَ: سوفَ أنالُه ... وذلِكَ مِنْ تِلقاءِ مِثْلِكَ رائِعُ

أتُوعِدُ عَبْداً لَمْ يَخُنْكَ أمانةً ... وتَتْرُكُ عَبْداً ظالِماً وهْوَ ظالِعُ

وحَمّلتَني ذنبَ امْرئٍ وتركْتَه ... كَذي العُرِّ يُكوى غيرُه وهْوَ راتِعُ

وذلكَ أمْرٌ لمْ أكُنْ لأقولَه ... ولو كُبِّلَتْ في ساعِديَّ الجَوامِعُ

أتاكَ بقولٍ لَهْلَهِ النَّسْخِ كاذِباً ... ولَمْ يأتِ بالحَقِّ الذي هوَ ناصِعُ

لَعَمْري وما عَمْري على بِهيِّنٍ ... لَقَدْ نَطَقَتْ بُطلاً عليّ الأقارِعُ

وعيدُ أبي قابوسَ في غَيْرِ كُنْهِه ... أتاني ودوني راكِسٌ فالضَّواجِعُ

فَبِتُّ كأنّي ساوَرَتْني ضَئيلةٌ ... مِنَ الرُّقْشِ في أنيابِها السُّمُّ ناقِعُ

يُسَهَّدُ في لَيْلِ التِّمامِ سَليمُها ... لِحَلْيِ النّساءِ في يَدَيْهِ قعاقِعُ

تناذَرَها الراقون مِنْ سوءِ سُمِّها ... تُطلِّقُه طَوْراً وطَوْراً تُراجِعُ

فالنابغة يقول للنعمان إن غضبه على النابغة وتوجيه اللوم إليه، يسبب له همًّا وحزنًا وتعبًا، حتى أصبح كالمريض الذي ينام على أشواك، تتجدد من حين إلى حين، ثم يحلف أن ما حدث ليس له أساس من الصحة، وإنما محض كذب وافتراء اختلقه الواشون ليفسدوا ما بينهما.

ثم يبين النابغة للنعمان أن ذهابه إلى الغساسنة ليس إلا لشكرهم اعترافًا بالجميل الذي أسدوه إلى النابغة، ومن يشكر صاحب الفضل لا يؤاخذ على شكره، وإنما أنت أيها الملك لا يدانيك ملك آخر. فليس هناك من الملوك من يشبهك أو يناظرك، فأبهتك وعظمتك وسلطانك تغطي على الأخرين، وتخفي معالمهم، كالشمس حينما تسطع تتلاشى أمامها جميع الكواكب.

ثم يقول النابغة للنعمان: أرجو ألّا يكون في نفسك غضب علي، كما أدعوك ألا تضمر لي تهديدًا، وإلا كرهني الناس، لأنهم جميعًا يحبونك، ونبذوني. واجتنبوني كأني بعير أجرب قد طلي بالقطران. ويستمر النابغة فيتضرع إلى النعمان قائلًا: إن ما بيني وبينك ليس إلا واحدة من حالتين: إما أن أكون مذنبًا، وإما أن أكون بريئًا. فإن كنت مذنبًا، فأنا بشر. وليس من البشر واحد كامل من جميع النواحي، فلكل إنسان عيوب وهفوات. وأنت أعظم من يعفو عن الذنوب، ويصفح عن الهفوات، فأنت أهل الرضا والإكرام، وإن كنت بريئًا، فلست أنا إلا عبدًا وللسيد حق التصرف في عبده، وأنا راضٍ بسيدي، حبيب إليّ جميع تصرفاته، ولا أبغي إلا رضاه ومسرته.

٤- الخصائص المعنوية :

لعل أول ما يلاحظ على معاني الشاعر الجاهلي أنها معان واضحة بسيطة ليس فيها تكلف ولا بعد ولا إغراق في الخيال؛ سواء حين يتحدث عن أحاسيسه أو حين يصور ما حوله في الطبيعة؛ فهو لا يعرف الغلو ولا المغالاة، ولا المبالغة التي قد تخرج به عن الحدود المعقولة.

ومرجع ذلك إلى أنه لم يكن يفرض إرادته الفنية على الأحاسيس والأشياء؛ بل كان يحاول نقلها إلى لوحاته نقلًا أمينًا، يُبقي فيه على صورها الحقيقية دون أن يدخل عليها تعديلًا من شأنه أن يمس جواهرها. ومن أجل ذلك كان شعره وثيقة دقيقة لمن

يريد أن يعرف حياته وبيئته برملها ووديانها ومنعرجاتها ومراعيها وسباعها وحيوانها وزواحفها وطيرها.

وعرف القدماء ذلك فكلما تحدثوا عن عادات الجاهلين وألوان حياتهم استشهدوا بأشعارهم. وحينما كتب الجاحظ كتاب الحيوان وجد في هذه الأشعار مادة لا تكاد تنفد في وصفه ووصف طباعه وكل ما يتصل به من سمات ومشخصات.

ومعنى ذلك أن الشاعر الجاهلي لم يغتصب الحيون لنفسه، فيسكب عليه من خياله ما يحيله عن حقيقته، ونستطيع أن نلاحظ ذلك في وصفه أنهم لا يبذلون في الحقائق ولا يعدلون في علاقتها ومعانيها، بل يخضعون لها ويضبطون خيالاتهم وانفعالاتهم إزاءها. ونحن بهذا الوصف إنما نقصد إلى جمهور أشعارهم؛ فقد تندّ بعض أبيات تحمل ضربًا من المبالغة؛ ولكن ذلك يأتي شاذًّا ونادرًا.

وأغلب الظن أن شيوع هذه الروح فيهم هو الذي طبع أفكارهم بنزعة تقريرية؛ إذ تعودوا أن يسندوا أقوالهم بذكر الحقيقة عارية دون خداع يموِّهها أو طلاء يزيفها. ومن هنا كانت معانيهم محددة تحديدًا يبرزها في أتم ما يكون من ضياء، ومن ثم تبدو في كثير من جوانبها كأنها شيء راسخ ثابت.

ويتضح ذلك في حكمهم التي تصور أحكامًا سليمة وخبرات صائبة كما يتضح في جوانب كثيرة من تأبينهم ومديحهم وغزلهم وحماستهم؛ إذ يقدم الشاعر المعاني منكشفة كأنها أشياء صلبة محسوسة؛ فهي حقائق تُسْرَدُ سردًا وقلما شابها الخيال، إلا ليزيدها إمعانًا في الوضوح والجلاء.

ونقرأ في أشعاره فنجد معانية حسية، واضحة، لا يقف بيننا وبينها أي غموض أو أشراك ذهنية تضل في ممراتها وشُعبها الفكرية؛ إذ يعرض علينا هذه المعاني دائمًا مجسمة في أشخاص أو في أشياء. ولنأخذ فضائلهم التي طالما أشادوا بها في

حماستهم ومراثيهم ومدائحهم، فنجدها دائمًا تساق في مادة الإنسان الحسية، فهم لا يتحولون بها إلى معنى ذهني عام يصور إحساسهم بالبشرية جميعها في هذه الفضيلة أو تلك، فالكرم مثل البخل والوفاء وغيرهما من الفضائل والرذائل لا بد أن يقترن بشخص معين يتحدثون عنه.

وهذه النزعة في الشاعر الجاهلي جعلته لا يحلل خواطره ولا عواطفه إزاء ما يتحدث فيه من حب أو غير حب؛ فهو لا يعرف التغلغل في خفايا النفس الإنسانية ولا في أعماق الأشياء الحسية. وتتضح هذه النزعة في خياله وتشبيهاته فهو ينتزعها من عالمه المادي.

ولنرجع مثلا إلى تشبيهاته للمرأة فهو يشبهها بالشمس والبدر والبيضة والدرة ! والدمية والرمح والسيف والغمام والبقرة والظبية والقطاة، ويشبه أسنانها بالأُقحوان وبنانها بالعَنم وثغرها بالبلور وخدها وترائبها بالمرآة وشعرها بالحبال والحيات والعناقيد ووجهها بالدينار وثديها بأنف الظبي ورائحتها بالمسك وبالأترجة وريقها بالخمر وبالعسل وعينها بعين البقرة والغزال وعجزها بالكثيب وساقها بالبُردية.

أما الرجل فيشبهه بالبحر وبالغيث وبالأسد وبالذئب وبالعقاب وبالبعير وبالبدر والقمر وبالرمح والسيف وبالبقرة والتيس والضبع وبالأفعوان والحية وبالكلب والحمار وبالصخرة وبالصقر وبالفحل.

وعلى هذه الشاكلة من الحسية في التشبيه الشعر الجاهلي جميعه؛ فالشاعر يستقي أخيلته من العالم الحسي المترامي حوله. وجعلهم تمسكهم بهذه الحسية إذا وصفوا شيئًا أدقوا النظر في أجزائه وفصلوا الحديث فيها تفصيلًا شديدًا، وكأنما يريدون أن ينقلوه إلى قصائدهم بكل دقائقه، وكأن الشاعر نحات لا يصنع قصيدة، وإنما يصنع تمثالًا؛ فهو يستوفي ما يصفه بجميع أجزائه وتفاصيله الدقيقة. وخير مثل لذلك

وصف طرفة لناقته في معلقته فقد نعت جميع أعضائها وكل دقيقة فيها وجليلة. ولم يترك منها شيئًا دون وصف أو بيان.

وهذه الحسية فيهم جعلتهم لا يتسعون بمعانيهم؛ بل جعلتهم يدورون حول معان تكاد تكون واحدة، وكأنما اصطلحوا على معان بعينها، فالشعراء لا ينحرفون عنها يمنة ولا يسرة، فما يقوله طرفة في الناقة يقوله فيها غيره، وما يقوله امرؤ القيس في بكاء الديار يقوله جميع الشعراء.

وعند قراءة حماسية كمعلقة عمرو بن كلثوم فسنجد الشعراء الحماسيين لا يكادون يأتون بمعنى جديد، وقل ذلك في غزلهم ومديحهم ورثائهم فالشعراء يتداولون معاني واحدة وتشبيهات وأخيلة واحدة. ومن ثم تَبَدو في أشعارهم نزعة واضحة للمحاكاة والتقليد، وجنَى عليهم ذلك ضيق واضح في معانيهم؛ غير أنه من جهة ثانية أتاح لهم التدقيق فيها وأن يجلوها ويكشفوها أتم كشف وجلاء، والقراءة في المفضليات والأصمعيات تبرز دائمًا نفس المعاني، وتكشف أيضًا براعة نادرة في إعادتها وصوغها صوغًا جديدًا.

فكل شاعر يحاول أن يعطيها شيئًا من شخصيته، ولنأخذ مثلًا تشبيه المرأة بالظبية، فشاعر يشبهها بها تشبيهًا عاديًّا، وشاعر يشبهها بها وهي تمد عنقها إلى شجر السلم الناضر، يريد أن يستتم بذلك منظرًا بديعًا للظبية.

٥- الخصائص اللفظية:

من أهم ما يلاحظ على الشعر الجاهلي أنه كامل الصياغة؛ فالتراكيب تامة ولها دائمًا رصيد من المدلولات تعبر عنه، وهي في الأكثر مدلولات حسية، والعبارة تستوفي أداء مدلولها، فلا قصور فيها ولا عجز. وهذا الجانب في الشعر الجاهلي يصور رقيًّا لغويًّا، وهو رقي لم يحدث عفوًا فقد سبقته تجارب طويلة في غضون العصور الماضية قبل هذا العصر، وما زالت هذه التجارب تنمو وتتكامل حتى أخذت الصياغة الشعرية عندهم هذه الصورة الجاهلية التامة؛ فالألفاظ توضع في مكانها والعبارات تؤدي معانيها بدون اضطراب.

وقد يكون من الأسباب التي أعانتهم على ذلك أن الشعراء كما أسلفنا كانوا يرددون معاني بعينها؛ حتى لتتحول قصائدهم إلى ما يشبه طريقًا مرسومًا، يسيرون فيه كما تسير قوافلهم سيرًا رتيبًا، وكانوا هم أنفسهم يشعرون بذلك شعورًا دقيقًا، مما جعل زهيرًا يقول بيته المأثور -إن صح أنه له-:

مَا أَرَانَا نَقُوْلُ إلَّا معارًا … أو مُعادًا من لفظنا مكرورا

فهو يشعر أنهم يبدءون ويعيدون في ألفاظ ومعان واحدة، ويجرون على طراز واحد طراز تداولته مئات الألسنة بالصقل والتهذيب؛ فكل شاعر ينقح فيه ويهذب ويصفي جهده حتى يثبت براعته.

ولم تكن هناك براعة في الموضوعات وما يتصل بها من معان إلا ما يأتي نادرًا؛ فاتجهوا إلى قوالب التعبير، وبذلك أصبح المدار على القالب لا على المدلول والمضمون، وبالغوا في ذلك، حتى كان منهم من يخرج قصيدته في عام كامل، يردد نظره في صيغها وعباراتها حتى تصبح تامة مستوية في بنائها .

وربما دل ذلك على أن مطولاتهم لم تكن تصنع دفعة واحدة؛ بل كانت تصنع على دفعات، ولعل هذا هو سبب تكرار التصريع في طائفة منها، ولعله أيضًا السبب في تَفْككها واختلاف عواطفها؛ فقد كان الشاعر يصنعها في أزمنة مختلفة.

وأغلب الظن أنه كان إذا صنع قطعة عرضها على بعض شعراء قبيلته وبعض من يلزمه من رواته؛ فكانوا يروونها بصورة، وما يلبث أن يعيد فيها النظر فيبدِّل في بعض أبياتِها، يبدل كلمة بكلمة، وقد يحذف بيتًا.

ومعنى ذلك أن صناعة المطولات أعدت منذ العصر الجاهلي لاختلاف الرواية فيها بسبب ما كان يدخله صاحبها عليها من تعديل وتنقيح. وفي أسماء شعرائهم وألقابهم ما يدل على البراعة في هذا التنقيح وما يطوى فيه من تجويد؛ فقد لقبوا امرأ القيس بن ربيعة التغلبي بالمهلهل لأنه أول من هلهل ألفاظ الشعر وأرقها ولقبوا عمرو بن سعد شاعر قيس بن ثعلبة بالمرقش الأكبر لتحسينه شعره وتنميقه ولقبوا ابن أخيه ربيعة بن سفيان بالمرقش الأصغر.

كما لقبوا طفيلًا بالمحبر لتزيينه شعره، ولقبوا علقمة بالفحل لجودة أشعاره ولقبوا غير شاعر بالنابغة في شعره، ومن ألقابهم التي تدل على احتفالهم بتنقيح الشعر المثقِّب والمتنخّل. وقد استطاعوا حقًّا أن يبهروا العصور التالية بما وفروه لأشعارهم من صقل وتجويد في اللفظ والصيغة.

ونحن نعرف أن الصيغة في الشعر صيغة موسيقية، وقد أسلفنا كيف أحكموا هذه الصيغة؛ فقد كان الشاعر يتقيد في قصيدته بالنغمة الأولى، وما زالوا يصفون في نغم القصيدة، حتى استوى استواء كاملًا، سواء من حيث اتحاد النغم أو اتحاد القوافي وحركاتها، وبرعوا في تجزئة الأوزان حتى يودعوا شعرهم كل ما يمكن من عذوبة وحلاوة موسيقية .

ولنقرأ في حوليات زهير وقصائده المطولة وفي غيره من المبرزين أمثال النابغة وعلقمة الفحل والمرقشين والأعشى وطرفة والمتلمس وعنترة ودريد بن الصمة وسلامة بن جندل والحادرة والمثقب العبدي فسنجد أنفسنا أمام قصائد باهرة، قد أُحكمت صياغتها وضبطت أدق ضبط، في هذا الجانب وكيف حققوا لموسيقاهم مهما جَزُلَتْ وتضخمت كل ما يمكن من بهاء ورونق.

وقد استعانوا منذ أقدم أشعارهم؛ لغرض التأثير في سامعيهم، بطائفة من المحسنات اللفظية والمعنوية، وأكثرها دورانًا في أشعارهم التشبيه؛ فلم يصفوا شيئًا إلا قرنوه بما يماثله ويشبهه من واقعهم الحسي، فالفرس مثلًا يشبه من الحيوان بمثل الظبي والأسد والفحل والوعل والذئب والثعلب ويشبه من الطير بالعقاب والصقر والقطاة والباز والحمام، ويشبه بالسيف والقناة والرمح والسهم وبالأفعوان والحبل والهراوة والعيب والجذع وتشبه ضلوعه بالحصير وصدره بمداك العروس وغرته بخمار المرأة والشيب المخضوب ومنخره بالكير وعرفه بالقصبة الرطبة وحافره بقعب الوليد وعنقه بالرمح والصعدة وعينه بالنقرة والقارورة ولونه بسبائك الفضة وارتفاعه بالخباء.

وكل هذه الأوصاف والتشبيهات مبثوثة في المفضليات والأصمعيات، ويعرض علينا امرؤ القيس في وصفه لفرسه بمعلقته طائفة طريفة منها. وعلى نحو ما لاحظنا آنفًا كانوا يحاولون الإطراف في التشبيه، حتى يخلبوا ألباب سامعيهم، وقد يقعون على صورة نادرة كتصوير المتنخل اليشكري لغدائر بعض النساء بأنها كالحيات.

مصادر الشعر الجاهلي

يقصد بالمصادر الأدبية تلك الذخائر الأدبية الباقية لنا من آثار العلماء والأدباء والـرواة والشـعراء، التـي تعـد أساسـا للرجـوع إليهـا لمعرفـة تـاريخ الجـاهليين وأدبهـم وشعرهم .

وإذا كان الأدب الجاهلي من الناحية الفنية ينقسم إلى قسمين: النثر والشعر، ففيما يختص بالنثر الجاهلي نجد أنه لم يحظ بما حظي به الشعر من جمع ومراجعة وتوثيق فما جاء إلينا كان مبعثرا من خلال كتب الأدب والقصص والتاريخ .

أما الشعر فقد حظي بعناية عظيمة، فجمع في كتب خاصة، وتوفر الكثير من العلماء على بحثه ودراسته وتحقيقه والتعليق عليه، فضلا عن وجود كثير من الأشعار الجاهلية في كتب الدراسات الأدبية، والتاريخية، والسير وكتب النقد، واللغة، والنحو، والبلاغة وكذلك الكتب الدينية، ونستطيع أن نقسم مصادر الشعر الجاهلي إلى قسمين كبيرين: **المصادر العامة وتضم :**

١- المصادر الأدبية العامة .

٢- المصادر التاريخية وكتب السير واللغة والتراجم والنحو .

والمصادر الخاصة وتضم:

١- دواوين الشعراء المفردة:

وأشهرها دواوين الشعراء الستة الجاهليين امرئ القيس، والنابغة، وزهير، وطرفة، وعنترة، وعلقمة.

إضافة إلى دواوين مختلفة كديوان لبيد، وعروة بن الورد، وحاتم، والشَّنْفَرَى، وأوس بن حَجَر، وعَبِيد بن الأبرص، وعامر بن الطُّفَيل.

٢- دواوين القبائل

ولم يصل إلينا في كثير من عناوين دواوين القبائل اسم من جمعها، ومن المرجح أن أقدم مادون في هذا الضرب كان غفلاً من الأسماء.

أما دواوين القبائل التي جمع منها الشيباني نيفاً وثمانين، وعُني السُّكّريّ بكثير منها، ففقدت في الطريق، ولم يبق منها إلا قطع من ديوان هُذيل.

وهناك أيضاً كتب الأنساب والأيام. ويبدو أن أقدمها يرجع إلى العصر الجاهلي، ويمكن اعتبارها مصدرًا لأشعار القبائل.

ونعرف عناوين دواوين القبائل إما بشكل مباشر من كتاب "الفهرست" لابن النديم وغيره من الكتب الببليوجرافية، أو بشكل غير مباشر عن طريق الأخبار والمقتبسات في كتب المختارات الأدبية. وكتب الطبقات التي كانت دواوين القبائل مصادر لها.

ذكر ابن النديم صناع أشعار القدماء وأسماء القبائل، ومن جمعها وألفها. ومن بين ثمانية وعشرين ديواناً للقبائل كان أبو سعيد السكري (٢١٢-٢٧٥هـ) صاحب صنعة خمسة وعشرين ديواناً.

ولقد ذكر الحسن بن بشر الآمدي المتوفي ٣٧١هـ عدداً كبيراً من دواوين القبائل في كتاب " المؤتلف والمختلف".

٣- كتب المختارات:

أ- المعلقات

المعلقات هي قصائد قد اختارها العرب من شعر فحولهم، وذهبوها على الحرير، وناطوها بالكعبة تشريفا لها، وتعظيما لمقامها، واعترافا بحسن سبكها، حتى أصبحت العرب تترنم بها في نواديها.

وقد بلغ من كلف العرب به (أي بالشعر) وتفضيلها له أن عمدت إلى سبع قصائد من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب في القباطي المدرجة، وعلقتها بأستار الكعبة. فمنه ما يقال له: "مذهبة امرئ القيس" و"مذهبة زهير". والمذهبات سبع، ويقال لها (المعلقات) .

وإنما سميت المعلقات؛ لأن العرب اختارتها بين أشعارها فكتبوها بالذهب على الحرير، وقيل: بماء الذهب في القباطي جمع قبطية - بالكسر والضم، وهي ثياب إلى الرقة والدقة والبياض، كانت تتخذ بمصر من الكتان ثم علقوها على أركان الكعبة، وقيل: في أستارها، وزاد بعضهم أنهم كانوا يسجدون لها كما يسجدون لأصنامهم.

وقد عني الشراح بهذه المجموعة، فشرحوها مراراً، وطبع من شروحهم شرح الزوزني المتوفى عام ٤٨٦هـ وشرح التبريزي المتوفى عام ٥٠٢هـ.

ومن مسمياتها : السبع الطوال، والسموط، والسبعيات، أما الأولى فهي تسمية حماد، وقد نقلها من الحديث أعطيت مكان التوراة السبع الطوال وهي: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف؛ واختلفوا في السابعة أنها يونس، أو يوسف، أو الكهف.

وأما الثانية ففي "الجمهرة" عن المفضل أن امرأ القيس وزهيرًا والنابغة والأعشى ولبيدًا وعمرًا وطرفة، أصحاب السبع الطوال التي تسميها العرب السموط "ونقلها صاحب "العمدة": السمط، ونقلها عنه السيوطي في "المزهر"".

فمن قال إن السبع لغيرهم فقد خالف ما أجمع عليه أهل العلم والمعرفة؛ فأسقط من أصحاب المعلقات عنترة والحارث بن حلزة، وأثبت الأعشى والنابغة؛ وهذا مما يدل على أن بين الرواة اختلافًا فيهم، فلو كان خبر التعليق صحيحًا لكان نصا في تعيين الأسماء.

اختلف الرواة في عدد المعلقات وأصحابها. فمنهم من يجعلها سبعا، وأصحابها هم (امرؤ القيس وطرفة بن العبد وزهير بن أبي سلمى ولبيد بن ربيعة وعمرو بن كلثوم وعنترة بن شداد والحارث بن حلزة اليشكري) . وبعضهم ثمانية، ويضيف إلى أصحابها (النابغة الذبياني) وبعضهم يجعلها عشرة، ويضيف إليهم (الأعشى ميمونا وعبيد بن الأبرص) .

شعراء المعلقات :

١ - امرؤ القيس (...- ٥٦٥م)

هو امرؤ القيس بن حجر الكندي، كنيته أبو وهب، أو أبو الحارث. قيل: إن اسمه جندح وإن امرأ القيس لقب غلب عليه، ومعناه رجل الشدة، لقب به لِمَا لقي من الشدائد.

ولد امرؤ القيس في أوائل القرن السادس للمسيح في نجد. وذكر مؤرخوه أن أمه هي فاطمة بنت ربيعة بنت الحارث أخت كليب والمهلهل. ولكن هذا القول مشكوك في صحته؛ لأن امرأً القيس ذكر في شعره خالًا له يدعى ابن كبشة، فلو كان كليب والمهلهل خالية لما كان استنكف من ذكرهما، وهما من عُرف محلهما في الشرف والشجاعة.

ثم إن الذين نقلوا أخباره يقولون: إن أباه طرده لأنه شبب بفاطمة، فمن غير المعقول أن يكون قد شبب بأمه، ولكن فاطمة هذه كانت ولا ريب زوج أبيه شبب بها لما كانت عليه من جمال فغار أبوه وطرده.

ويعد امرؤ القيس من فحول شعراء الجاهلية يعد من المقدمين بين ذوي الطبقة الأولى وفي شعره رقة اللفظ وجودة السبك وبلاغة المعاني، سبق الشعراء إلى أشياء ابتدعها واستحسنها العرب واتبعته عليها الشعراء كوقوفه واستيقافه صحبه في الديار ورقة النسيب، وقرب المأخذ وجودة التشبيه وتفننه فيه، ودقة الوصف، وبراعته فيه وما في وصفه من حياة وحركة، وفي شعره من رمز وتلميح ومن موافقة الألفاظ للمعاني، **ومن معلقته:**

قِفا نبك من ذِكرى حبيبٍ ومنزل ... بسِقطِ اللّوى بينَ الدَّخول فَحَوْمَلِ[1]

فتُوضِحَ فالْمِقراةِ لم يَعْفُ رَسْمُها ... لما نَسَجَتْها من جنوبٍ وشَمْأَلِ

ترى بَعَرَ الأَرْآمِ في عَرَصاتِها ... وقيعانها كأنّهُ حَبُّ فُلْفُلِ

كأني غَداةَ البَينِ يَوْمَ تَحَمَّلوا ... لدى سَمُراتِ الحيّ ناقِفُ حَنظلِ

وُقوفًا بها صَحْبِي عَلَيّ مَطِيَّهُمْ ... يقولونَ لا تهلِكْ أسىً وتَجَمَّلِ

وإنَّ شِفائي عَبْرَةٌ مُهَراقَةٌ ... فهلْ عندَ رَسمٍ دارسٍ مِنْ مُعَوَّلِ

كدأبِكَ من أمِّ الْحُوَيْرِثِ قبْلَها ... وجَارَتِها أم الرَّبابِ بِمَأسَلِ

إذا قامَتا تَضَوّعَ الْمِسْكُ مِنْهُمَا ... نسيمَ الصَّبا جاءت بريّا القَرَنْفُلِ

ففاضَتْ دُموعُ العَينِ مِنّي صَبَابَةً ... عَلَى النَّحرِ حتّى بلّ دمعيَ مِحْمَلي

ألا رُبَّ يَومٍ لكَ مِنْهُنّ صَالِحِ ... ولا سيَّمَا يومٍ بِدَارَةِ جُلْجُلِ

وَيَوْمَ عَقَرْتُ للعَذارى مَطيّتِي ... فيا عجبًا من كورِها الْمُتَحَمَّلِ

فظلَّ العذارى يرْتَمينَ بلحمِها ... وشحمٍ كَهُدَّابِ الدِّمَقس الْمُفَتَّلِ

ويومَ دخلتُ الْخِدرَ خدرَ عُنَيزَ ... فقالتْ لكَ الوَيلاتُ إنَّك مُرْجِلي

---

[1] السقط: منقطع الرمل حيث يستدق من طرفه، . الدخول وحومل: موضعان.، توضح والمقراة موضعان وسقط اللوي بين هذه المواضع الأربعة، يعف رسمه، أي لم يَنْمَحِ أثرها، لرسم ما لصق بالأرض من آثار الدار مثل البعر والرماد وغيرهما.، الأرآم: الظباء البيض الخالصة البياض، واحدها رئم، بالكسر، وهي تسكن الرمل. عرصات في "المصباح": عرصة الدار ساحتها، وهي البقعة الواسعة، قيعان جمع قاع وهو المستوي من الأرض، والفلفل: حب هندي،والغداة الضحوة، البين: الفرقة، تحملوا واحتملوا بمعنى: أي ارتحلوا، سمرات جمع سمرة، بضم الميم: من شجر الطلح. الحي: القبيلة من الأعراب، والجمع أحياء. نقف الحنظل: شقة عن الهبيد، وهو الحب ، المطي: المراكب، لا تهلك أسى وتجمل: لا تهلك من فرط الحزن وشدة الجزع وتجمل بالصبر المهراق والمراق: المصبوب، المعوّل: المبكى، الدأْبُ والدأَبُ، بتسكين الهمزة وفتحها: العادة، وأصلها متابعة العمل والجد في السعي، مأسَل، بفتح السين: جبل بعينه، ضاع الطيب وتضوّع إذا انتشرت رائحته. الريّا: الرائحة الطيبة. الصبابة: رقة الشوق، المحمل: حمالة السيف، وربّ موضوع في كلام العرب للتقليل، جلجل: يوم دارة جلجل، يريد أن ذلك اليوم كان أحسن الأيام وأتمها، العذراء من النساء: البكر، الكور: الرحل بأداته، الْهُدَّاب والهدب: اسمان لما استرسل من الشيء نحو ما استرسل من الأشفار من الشعر ومن أطراف الأثواب، الدمقس والمدقس: الإبريسم، وقيل: هو الأبيض منه خاصة. الخدر: الهودج،عنيزة: اسم عشيقته وهي ابنة عمه.

تقـولُ وقـد مـال الغَبـيطُ بنـا معًـا عَقَرْتَ بَعِيري يـا امرَأَ القَيس فـانزِلِ[1]

فَقُلـتُ لَهَـا سـيري وأرْخـي زِمَامَـه ولا تُبعــديني مـــن جنَـــاكِ الْمُعَلَّـــلِ

فمِثلِـكِ حُبْلـى قـد طَرَقْتُ وَمُرْضِـعٍ فألْهَيتُهــا عــن ذي تمــائمَ مُحْــوِلِ

إذَا ما بكى من خلفها انْصَرَفَتْ لهُ بشِــقٍّ وتحتــي شِــقُّها لــم يُحَــوَّلِ

وَيومًـا عَلَـى ظَهـرِ الكَثيـبِ تَعَذَّرَتْ عَلَــيّ وآلَــتْ حَلْفَــةً لــم تَحَلَّــلِ

أفـاطِمَ مهـلًا بعـضَ هـذا التَّـدَلّلِ وَإن كنـتِ قد أزمعتِ صَرْمي فـأجملي

أغَــرّكِ منـــي أنّ حبّــكِ قــاتِلي وَأنّــكِ مهمــا تــأمري القلــبَ يَفْعَـلِ

٢- طرفة بن العبد :

هو طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن عليّ بن بكر بن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى بن دعميّ بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان، كان في حسب كريم وعدد كثير، وكان شاعرًا جريئًا على الشعر، وكانت أخته عند عبد عمرو بن بشر بن عمرو بن مرثد بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس، وكان عبد عمرو سيد أهل زمانه وكان من أكرم الناس على عمرو بن هند الملك، فشكت أخت طرفة شيئًا من أمر زوجها إلى طرفة فعاب عبد عمرو وهجاه. **ومن معلقته:**

---

[1] الغبيط: ضرب من الرِّحال، عقرت بعيري أي: أدبرت ظهره، المعلل: المكرر،الجنى: اسم لما يجتني من الشجر، الطروق: الإتيان ليلًا، المرضع: التي لها ولد رضيع، ولهيت عن الشيء ألهى عنه لهيًا إذا شغلت عنه وسلوت، وألهيته إلهاء إذا شغلته. التميمة: العوذة، محول: يقال: أحول الصبي إذا تم له حول فهو محول، شقّ الشيء: نصفه، الكثيب: رمل كثير،التعذر: التشدد والالتواء، والإيلاء والائتلاء والتألّي: الحلف، مهلًا: أي رفقًا. الإدلال والتدليل: أي يثق الإنسان بحب غيره إياه فيؤذيه على حسب ثقته به، والاسم الدّالة والدال والدلال. أزمعت الأمر وأزمعت عليه: وطّنت نفسي عليه.

لِخَوْلَـــةَ أَطْـــلالٌ ببُرقَـــةِ ثَهْمَـــدِ تَلوحُ كباقي الوَشْمِ في ظاهر اليَدِ[1]

وُقوفًـا بهـا صـحبي علـى مَطِـيِّهُمْ يَقولـــونَ لا تَهْلِـــكْ أســـىً وتَجَلّـــدِ

كـــأنَّ حُـــدوجَ المالِكِيّـــةِ غُـــدْوَةً خَلايـا سَـفينٍ بالنَّواصِـفِ مـن دَدِ

عَدَوليَّـةٌ أو مِـنْ سَـفِينِ ابـن يَـامِنٍ يَجُـورُ بـه المـلاح طـورًا ويهتـدي

يَشُـقّ حَبـابَ الْمَـاءِ حَيْزُومُهـا بهـا كَمَـا قَسَـمَ التّـرْبَ الْمُفايـلُ باليَـدِ

وَفِـي الْحَـيّ أحـوَى يـنفضُ الْمَـرْدَ مُظـاهرُ سِـمْطَيْ لُؤلُـؤ وزَبَرْجَـدِ

خَـــذولٌ تُرَاعـــي رَبْرَبًـــا بِخَميلَـــةٍ تَنَـــاوَلُ أَطْـــرَافَ البَريـــرِ وَتَرْتَـــدِي

وَتَبْسِـــمُ عـــن أَلْمَـــى كـــأنّ مُنَـــوّرًا تَخَلّـلَ حُـرّ الرّمْـلِ دِعْـصٍ لـه نَـدِ

سَـــقَتْهُ إيـــاةُ الشّـــمْسِ إلّا لِثاتِـــهِ أُسِـفّ وَلَـمْ تَكْـدِمْ عَليـهِ بِإثْمِـدِ

وَوَجـهٍ كـأنّ الشَّمس أَلْقَتْ رِداءها عَلَيْـــهِ نَقـــيّ اللّـــوْنِ لَـــمْ يَتَخَـــدّدِ

---

[1] خولـة: اسم امرأة كلبيـة، الطلل: مـا شـخص من رسوم الـدار، البرقة والأبرق والبرقاء: مكان اختلط ترابه بحجارة أو حصى، ثهمد: موضع. تلوح: تلمع، واللوح اللمعان. الوشم: غرز ظاهر اليد وغيره بإبرة وحشو المغارز بالكحل أو النقش بالنيلج، التجلد: تكلّف الجلادة وهو التصبر. الْحِدج: مركب من مراكب النساء، والجمع حدوج وأحداج، والحِداجة مثله، وجمعها حدائج. المالكية: منسوبة إلى بني مالك قبيلة من كلب. الخلايا: جمع الخلية وهي السفينة العظيمة. النواصف: جمع الناصفة وهي أماكن تتسع من نواحي الأودية مثال السكك وغيرها. دد، قيل: هو اسم واد في هذا البيت وقيل دد مثل يد، وددًا مثل عصا، وددن مثل بدن، وهذه الثلاثة بمعنى اللهو واللعب. عدولي: قبيلة من أهل البحرين، وابن يامن: رجل من أهلها، الْجَور: العدول عن الطريق، والباء هنا للتعدية. الطور: التَّارة، والجمع الأطوار. حباب الماء: أمواجه،الحيزوم: الصدر،الفيال: ضرب من اللعب، وهو أن يجمع التراب فيدفن فيه شيء، ثم يقسم التراب نصفين، ويسأل عن الدفين في أيهما هو، فمن أصاب قمر ومن أخطأ قُمر. الأحوى: الذي في شفتيه سمرة، والأنثى الحواء، وأيضًا الأحوى ظبي في لونه حُوّة، والشادن أحوى لشدة سواد أجفانه ومقلتيه، السمط: الخيط الذي نظمت فيه الجواهر والجمع سموط. خذول: أي خذلت أولادها. تراعي ربربًا. أي ترعى معه. الربرب: القطيع من الظباء وبقر الوحش. الخميلة: رملة منبتة، البرير: ثمر الأراك المدرك البالغ، الواحدة بريرة، الارتداء والتردي: لبس الرداء. الألمى: الذي يضرب لون شفتيه إلى السواد، والأنثى لمياء، حر كل شيء: خالصه. الدعص: الكثيب من الرمل، الندى يكون دون الابتلال، إياة الشمس وإياها: شعاعها. اللثة: مغرز الأسنان، الإسفاف: إفعال من سففت الشيء أسفه سفًّا. الإثمد: الكحل. الكدم: العض. التخدد: التشنج والتغضن.

وإنــي لأمْضــي الْهَـمّ عنـدَ احْتِضَـارِهِ بعَوْجــاءَ مِرْقَــالٍ تَــرُوحُ وَتَغْتَــدِي[1]

أمـــونٍ كَـــألْوَاحِ الإرانِ نَصَـــأْتُها علــى لاحِــبٍ كأنّـــهُ ظَهْـرُ بُرْجُـدِ

جَماليّـــةٍ وَجْنَـــاءَ تَـــرْدي كَأنَّهـــا سَـــفَنّجَةٌ تَبْـــرِي لأزْعَـــرَ أرْبَـــدِ

تُبــارِي عِتاقًــا ناجِيَــاتٍ وأتْبَعَــتْ وَظيفًــا وَظيفًــا فــوق مَــورٍ مُعَبَّــدِ

تَرَبّعَتِ القُفّـينِ فـي الشّـوْلِ تَرْتَعـي حَــدائِقَ مَــوليّ الأسِــرّةِ أغْيَــدِ

تَرِيـعُ إلـى صَـوْتِ الْمُهيـبِ وَتَتّقِـي بِـذي خُصَـلٍ رَوْعـاتِ أكلَـفَ مُلبِـدِ

كــأنّ جَنــاحَي مَضْـرَحيٍّ تَكَنّفَــا حِفافَيـهِ شُكَّا فـي العَسيبِ بِمَسْرَدِ

فَطَـوْرًا بــهِ خَلْـفَ الزّميـلِ وَتَــارَةً علــى حَشَـفٍ كالشّــنّ ذاوٍ مُجَـدَّدِ

---

[1] الاحتضار والحضور واحد. العوجاء: الناقة التي لا تستقيم في سيرها لفرط نشاطها. المرقال: مبالغة مرقل من الإرقال: وهو بين السير والعدو. الأمون: التي يؤمن عثارها. الإران: التابوت العظيم. نصأتها، بالصاد: زجرتها ونسأتها، بالسين، أي: ضربتها بالمنسأة، وهي العصا. اللاحب: الطريق الواضح. البرجد: كساء مخطط. الجمالية: الناقة التي تشبه الجمل في وثاقة الخلق. الوجناء: المكتنزة اللحم، الرديان: عدو الحمار بين متمرغه وآرِيِّهِ،السفنجة: النعامة. تبري: تعرض، والبري والانبراء واحد وكذلك التبري. الأزعر: القليل الشعر. الأربد: الذي لونه لون الرماد. باريت الرجل: فعلت مثل فعله مغالبًا له. العتاق: جمع عتيق: وهو الكريم. الناجيات: المسرعات في السير، نجا ينجو نَجًا ونجاء أي: أسرع في السير. الوظيف: ما بين الرسغ إلى الركبة وهو وظيف كله. المور: الطريق. المعبّد: المذلل، والتعبيد: التذليل والتأثير. التربع: رعي الربيع والإقامة بالمكان واتخاذه ربعًا. القف: ما غلظ من الأرض وارتفع لم يبلغ أن يكون جبلًا، الشول: النوق التي جفت ضروعها وقلّت ألبانها، الارتعاء: الرعي، المولي: الذي أصابه الولي وهو المطر الثاني من أمطار السنة، الأغيد: الناعم الخلق، الريع: الرجوع، والفعل راع، يريع. الإهابة: دعاء الإبل وغيرها، الاتقاء: الحجز بين شيئين، والخصل جمع خصلة من الشعر وهي قطعة منه. الروع: الإفزاع، والروعة فعلة منه، وجمعها الروعات. الأكلف. الذي يضرب إلى السواد. الملبد: ذو وبر متلبد من البول والثلط وغيره. روعات أكلف أي: روعات فحل أكلف، فحذف الموصوف. المضرحي: الأبيض من النسور، وقيل: هو العظيم منها. التكنف: الكون في كنف الشيء وهو ناحيته. الحفاف: الجانب. الشك: الغرز. العسيب: عظم الذنب، والجمع العُسُب. والمسرد المسراد: الإشفى، قوله: فطورًا به، يعني فطورًا تضرب بالذنب، الزميل: الرَّديف، الحشف: الأخلاف التي جف لبنها فتشنجت، الشنّ: القربة الخل. الذوي: الذبول، المجدد الذي جُدّ لبنه أي قطع.

لها فَخِذَانِ أُكْمِلَ النّحْضُ فيهما	كَأَنَّهما بابا مُنيفٍ مُمَرَّدِ[1]
وَطَيٌّ مَحالٍ كالْحَنيّ خُلُوفُهُ	وأَجْرِنَةٌ لُزّتْ بدَأيٍ مُنَضَّدِ

٣- زهير بن أبي سلمى:

هو: زهير بن أبي سُلمى، واسم أبي سلمى: ربيعة بن رياح بن قرة بن الحارث بن مازن، وينتهي نسبه إلى: مضر بن نزار بن مَعَدٍّ بن عدنان. وهو حكيم الشعراء، في الجاهلية، وأحد الثلاثة المقدّمين على سائر الشعراء، وإنما اختلفوا في تقديم أحد الثلاثة على صاحبيه. وأما الثلاثة فلا اختلاف فيهم، وهم: امرؤ القيس، وزهير، والنابغة الذبياني.

كان يعنى بتنقيح شعره وتهذيبه، وقد رويت له أربع قصائد سميت بالحوليات أي السنويات، وزعم رواة أخباره أنه كان ينظم الواحدة منها في أربعة أشهر، وينقحها في أربعة أشهر، ويعرضها على أخصّائه في أربعة أشهر، فلا تظهر إلا بعد حول. وأشهر شعره معلّقته التي مطلعها: "أَمِنْ أُمّ أوْفى دمنة لَمْ تكلَّم"، ويتميز بمتانة لغته وقوة تركيبه، وكثرة الغريب في شعره، وبتطلبه حقيقة المعنى الوضعي ليخرجه على ماديته الحقيقية، وبتحكيمه عقله ورويته في تصوراته وخياله، فلا يبتعد، إلا في النادر، عن الحقائق الواقعية المحسوسة.

ولا ريب أنَّ لكبر سنة تأثيرًا في خمود عاطفته وضعف خياله، فكل شعره يدلنا على أنه نظمه في حرب داحس والغبراء، وبعدها خاصة عندما بلغ الثمانين على حدّ

---

[1] النحض: اللحم. وقوله بابا منيف، أي: بابا قصر منيف، والمنيف: العالي، والإنافة العلو. الممرد: المملس،

قولـه، أو تجـاوزه، فمـن البـديهي أن يغلـب عليـه التعقـل والترصـن، وأن يكـون للعقـل العمل المهيمن في نتاجه الشعريّ.

وحياة زهير من الوجهة الأدبية طريفة، يقول الأصبهاني: "كان أبوه شاعرًا، وخالـه شاعرًا، وأخته سُلمى شاعرة، وابناه كعب وبجير شاعرين، وأخته الخنساء شاعرة.

وهو أشهر شعراء الجاهلية في إعطاء الحكمة وضرب المثل، وعرف في حياته بالرصانة والتعقّل، وهو شخصية ممتازة من شخصيات الشعر الجاهليّ، شخصية فيها بر ورحمة وفيها نزعة قوية إلى الخير.

وآراؤه ليست إلا من أوليات التفكير الإنساني وتفكير الشعب، وهذه الآراء هي التي جعلته قريبًا من الشعب؛ لأنه كان يكلمه فيها بما يعرف ويألف. وتحكيمه عقله في شعره، وإعماله تفكيره فيه، أضعفا عمل خياله، وعمل عاطفته، فلا تجد لهما عنده من الحّظ إلا يسيرًا، ومما يدل على تعقله وحنكته وسعة صدره حكمه في معلقته، وزهير عريق في الشعر، كان له فيه ما لم يكن لغيره وليس هذا فحسب فإنه عاش للشعر يعلّمه ابنيه بجيرًا وكعبًا من جهة، وأناسًا آخرين من غير بيته أشهرهم الحطيئة، فهو تلميذه وخرّيجه.

وفي أخباره مع ابنه كعب ما يدل على الطريقة التي كان يخرّج بها الشعراء، فقد كان يلقنهم شعره فيروونه عنه، وما يزالون يتلقونه حتى ينطبع في أنفسهم طريقة نظم الشعر وصوغه، وهو في أثناء ذلك يمتحن قدرتهم، بما يلقي عليهم من أبيات يطلب إليهم أن يجيزوها بنظم بيت على غرار البيت الذي ينشده في الوزن والقافية ويقال: إنه لم يتصل الشعر في ولد أحد من الفحول في الجاهلية ما اتصل في ولد زهير، وفي الإسلام ما اتصل في ولد جرير..

ومن معلقة زهير:

أمِـنْ أُمِّ أوْفَــى دِمْنَــةٌ لــم تَكَلّــمِ	**بِحَوْمَانَـــةِ الـــدّرّاجِ فـــالْمُتَثَلَّمِ** [1]
وَدَارٌ لَهَـــا بـــالرّقْمَتَينِ كأنّهـــا	**مراجيـعُ وشْـمٍ فـي نَواشِـرِ مِعْصَـمِ**
بهـا العِـينُ والأَرْآم يَمشـينَ خِلْفَـةً	**وأطْلاؤهَـا يَنْهَضْـنَ مـن كـل مِجْـثَمِ**
وقفْتُ بها من بعدِ عشرينَ حِجَّةً	**فلأيًـا عَرَفْـتُ الـدّار بَعْـدَ تَـوهمِ**
أثـافِيَّ سُـفْعًا فِـي مُعَـرَّسِ مِرْجَـلٍ	**وَنُؤيًـا كجِـذْم الحـوْضِ لـم يتـثلَّمِ**

[1] الدّمنة: ما اسوّد من آثار الدار بالبعر والرماد، حومانة الدراج والمتثلم: موضعان، وقوله: أمن أم أوفى يعني: أمن منازل الحبيبة المكناة بأم أوفى دمنة لا تجيب؟ الرقمتان: حرّتان إحداهما قريبة من البصرة والأخرى قريبة من المدينة. المراجيع: جمع المرجوع، من قولهم: رجعه رجعًا، أراد الوشم المجدد والمردّد. نواشر المعصم: عروقه، الواحد: ناشر، وقيل ناشرة، والمعصم: مواضع السوار من اليد والجمع المعاصم. بها العِين أي: البقر العِين، الأرْآم: جمع رئم وهو الظبي الأبيض خالص البياض؛ خلفة، أي: يخلف بعضها بعضًا إذا مضى قطيع منها جاء قطيع آخر، الأطلاء: جمع الطلا وهو ولد الظبية والبقرة الوحشية، والمجثم: موضع الجثوم،الحجة: السنة، والجمع الحجج، الّلأيُ: الجهد والمشقة. الأُثفية والإثْفية: جمعها الأثافِي والأثافِيُّ، بتثقيل الياء وتخفيفها، وهي حجارة توضع القدر عليها، السفع: السود، المعرس: أصل المنزل، من التعريس وهو النزول في وقت السحر، المرجل: القدر عند ثعلب من أي صنف من الجواهر كانت. النؤي: نهير يحفر حول البيت ليجري فيه الماء الذي يَنْصَّبُ من البيت عند المطر ولا يدخل البيت، الجمع الآناء والنُئِيّ. الجذم: الأصل، ويروى: كحوض الجد، والجد: البئر القريبة من الكلأ، وقيل: بل هي البئر القديمة.

فَلَمّا عَرَفْتُ الدَّارَ قلتُ لِرَبْعِهَا: ... أَلَا انْعَمْ صباحًا أيها الرَّبع واسلَمِ[1]

تبَصّرْ خليلي هلْ تَرَى مِنْ ظَعَائِنٍ ... تَحَمَّلْنَ بالعَلياءِ مِنْ فوقِ جُرْثُمِ

جَعَلْنَ القَنانَ عَن يَمينٍ وحَزْنَهُ ... وكمْ بالقَنانِ مِنْ مُحِلٍّ وَمُحْرِمِ

عَلَوْنَ بأنْمَاطِ عِتَاقٍ وكِلّةٍ ... وِرَادٍ حوَاشِيها مُشَاكهة الدّمِ

وَوَرّكْنَ في السُّوبانِ يَعلونَ مَتْنَهُ ... عَلَيْهِنّ دَلُّ النّاعِمِ الْمُتَنَعّمِ

بكرْنَ بكورًا واسْتَحَرْنَ بسُحْرَةٍ ... فَهُنّ وَوَادِي الرَّسِّ كاليَدِ لِلفَمِ

وَفيهِنّ مَلْهىً للطّيفِ وَمَنْظَرٌ ... أنيقٌ لِعَينِ النَّاظِرِ الْمُتَوَسّمِ

---

[1] كانت العرب تقول في تحيتها: انعم صباحًا، أي طاب عيشك في صباحك، من النعمة وهي طيب العيش، وخص الصباح بهذا الدعاء؛ لأن الغارات والكرائه تقع صباحًا، الظعائن: جمع ظعينة؛ لأنها تظعن مع زوجها، من الظَعْن والظَعَن وهو الارتحال. بالعلياء أي: بالأرض العلياء أي: المرتفعة. جرثم: ماء بعينه. القنان: جبل لبني أسد. عن يمين: يريد الظعائن. الْحَزْن: ما غلظ من الأرض وكان مستويًا. والْحُزَنُ ما غلظ من الأرض وكان مرتفعًا. من مُحلّ ومحرم، أنماط: جمع نمط وهو ما يبسط من صنوف الثياب. العتاق الكرام الواحد عتيق. الكلّة: الستر الرقيق، والجمع الكلل. الوراد: جمع ورد هو الأحمر والذي يضرب لونه إلى الحمرة. المشاكهة: المشابهة. ويروى وراد الحواشي لونها لون عندم. العندم: البقم، والعندم: دم الأخوين. السوبان: الأرض المرتفعة اسم علم لها. التوريك: ركوب أوراك الدواب. الدل والدلال والدالة واحد، وقد أدلت المرأة وتدللت. النعمة: طيب العيش. والتنعم: تكلف النعمة، وأبكر: سار بكرة. استحر: سار سحرًا. وادي الرس: واد بعينه. الملهى: اللهو وموضعه. اللطيف: المتأنق الحسن المنظر. الأنيق: المعجب، الإيناق: الإعجاب. التوسّم: التفرس .

كـأنّ فُتَـاتَ العِهْـنِ فـي كـلّ مَنـزِلٍ نَـزَلنَ بـه حَـبُّ الفَنَـا لـم يُحَطَّـمِ[1]
فَلَمّـا وَرَدْنَ المـاء زُرْقًـا جِمَامَـهُ وَضَـعْنَ عصـيّ الحاضِـر الْمُتَخَـيِّمِ
ظَهَـرْنَ مِـنَ السُّـوبانِ ثُـمّ جَزَعْنَـهُ علـى كـلّ قَيْنِـيٍّ قشـيبٍ ومُفْـأمِ
فَأَقْسَمْتُ بالبَيْتِ الذي طافَ حوْلَـهُ رِجـالٌ بَنَـوْهُ مـن قُـرَيشٍ وَجُـرْهُمِ
يَمينًـا لَـنِعْمَ السّـيّدانِ وُجِـدْتُمَا علـى كـلّ حـالٍ مِنْ سَحيلٍ وَمُبْرَمِ
تَـدَارَكتُما عَبْسًـا وَذُبيـان بَعْـدَمَا تَفَـانَوا وَدَقّـوا بَيـنَهم عطـرَ مَنشـمِ
وقد قلتمـا: إنْ نُـدْرِكِ السّلمَ وَاسعًا بمـالٍ وَمَعْـروفٍ مـن القـول نَسـلمِ
فأَصْبَحْتُمَا منها عَلَـى خَيرِ مَوْطِنٍ بَعيـدَينِ فيهـا مِـنْ عُقُـوقٍ وَمَـأثَمِ

[1] الفتات: اسم لما انفت من الشيء أي: تقطع وتفرق، الفنا: عنب الثعلب. التحطم: التكسر، والحطم: الكسر. العهن: الصوف المصبوغ. الزرقة: شدة الصفاء، الجمام: جمع جم الماء وجمته وهو ما اجتمع منه في البئر والحوض، وضع العصى: كناية عن الإقامة؛ لأن المسافرين إذا أقاموا وضعوا عصيهم. التَّخَيُّم: ابتناء الخيمة. الجزع: قطع الوادي، لقين: كل صانع عند العرب، فالحداد قين، والجزار قين، فالقين هنا الرحّال، القشيب: الجديد. المفأم: الموسع. جرهم: قبيلة قديمة تزوج فيهم إسماعيل، عليه السلام، السحيل: المفتول على قوة واحدة. المبرم: المفتول على قوتين أو أكثر، السيدان: هرم بن سنان والحارث بن عوف، التدارك: التلافي، أي تداركتما أمرهما. التفاني: التشارك في الفناء. منشم: قيل امرأة عطارة يتشاءمون منها، وقيل: بل كان عطارًا يشترى منه ما يحنَّطُ به الموتى فسار المثل بعطره. العقوق: العصيان، المأثم: الإثم

٤- لبيد بن ربيعة :

هو لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب العامري، وكنيته: أبو عقيل. وهو صحابي أدرك الجاهلية والإسلام. عاش خمسًا وأربعين سنة بعد المائة: ١٤٥، وقيل: بل خمسًا وخمسين بعد المائة: ١٥٥. وكان يقال لأبيه: ربيعة الْمُقْتِرِين؛ لجوده وسخائه.

وقد وَفَدَ وقومَه: بني جعفر بن كلاب، على النبي- صلى الله عليه وسلم- فأسلم وحسن إسلامه، وأسلم قومه. وكان لبيد وعَلْقمة بن عُلاثة العامريان من المؤلفة قلوبهم، وهو معدود من فحول الشعراء المجيدين وكان من شعراء الجاهلية وأجوادهم وفرسانهم. وقد أسلم "لبيد" قبل الفتح، وحَسُنَ إسلامه، وهاجر، ولم يصحّ عنه أنه قال شيئًا من الشعر بعد الإسلام إلا قوله: [الكامل] :

مَا عاتب المرء الكريم كنفسه   والمرء يصلحه القرين الصالح

والسبب في عدم قوله الشعر أنه لَمَّا أسلم وقرأ القرآن شغل بما فيه من حكمة رائعة، وموعظة حسنة، وبلاغة مُدهشة، صرفته عن الشعر.

وجاء في طبقات الشعراء: كان لبيد بن ربيعة عذب المنطق، رقيق حواشي الكلام، وكان مسلمًا رجل صدق، وكان في الجاهلية خير شاعر لقومه يمدحهم ويرثيهم، ويعد أيامهم ووقائعهم وفرسانهم.

وشعر لبيد من أجود أشعار البدو، واختار حماد قصيدة منه في المعلقات. ولبيد قدير على صياغة موضوعات البداوة صياغة ساحرة، ومما يزيد شعره نفاسة ما يتردد فيه من نغمات دينية. على أن الأدباء لم يتفقوا في تقويم شعر لبيد، فمنهم من رآه سهل المنطق، رقيق الحواشي، ومنهم من عده مثالًا لخشونة الكلام وصعوبته، وكلّ من هذين الفريقين ينظر إلى شعره من زاوية معينة. **ومن معلقته:**

عفَـتِ الـدِّيَار مَحَلُّهَـا فَمُقَامُهَـا ... بِمِنـىً تَأَبَّـد غَوْلُهَـا فَرِجَامُهـا[1]

فَمَـدافِعُ الرّيَـانِ عُـرّى رَسْـمُهَا ... خَلقًا كما ضَمِنَ الـوُحيَّ سِلامُها

دِمَـنٌ تَجَـرَّمَ بَعْـدَ عَهـدِ أنيسِـها ... حِجَـجٌ خَلَـوْنَ حَلالُهـا وَحَرَامُهـا

رُزِقَـتْ مرابيـعَ النّجـومِ وَصَـابَهَا ... وَدْقُ الرّواعِـدِ جَوْدُهَـا فَرِهامُهـا

مِـنْ كُـلّ سَـارِيَةٍ وَغَـادٍ مُـدْجِنٍ ... وَعَشِـيّةٍ مُتَجَـاوِبٍ إرْزَامُهَـا

فَعَـلَا فُـرُوعُ الأيْهَقَـانِ وَأَطْفَلَـتْ ... بـالْجَلْهَتَيْنِ ظِباؤهـا ونَعَامُهـا

وَالعـينُ سـاكِنَةٌ عَلـى أطْلائِهـا ... عُـوذًا تَأَجَّـل بالفَضَـاءِ بِهَامُهـا

وَجَـلَا السّيُولُ عَنِ الطُّلـولِ كأنَّهـا ... زُبُـرٌ تُجِـدّ مُتُونَهَـا أقْلامُهـا

أوْ رَجْـعُ وَاشِـمَةٍ أُسِـفّ نَئُورُهـا ... كِفَفًـا تَعَـرّضَ فَـوْقَهُنّ وِشَـامُها

فوقَفْـتُ أسـألُهَا وكَيـفَ سُـؤالُنا ... صُـمًّا خَوالِـدَ مـا يَبـينُ كَلامُهـا

---

[1] عفت الديار: عفت ديار الأحباب وانمحت منازلهم، منى: موضع بحمى ضرية غير منى الحرم، ومنى ينصرف ولا ينصرف ويذكر ويؤنث. تأبد: توحش، المدافع: أماكن يندفع عنها الماء من الربى ، الريان: جبل معروف، الوحي: الكتابة، السلام: الحجارة، التجرم: التكمل والانقطاع، العهد: اللقاء، الحجج: جمع حجة وهي السنة. وأراد بالحرام الأشهر الحرم، وبالحلال أشهر الحل. الخلو: المضي، مرابيع النجوم: الأنواء الربيعية وهي المنازل التي تحلّها الشمس فصل الربيع، الصَّوب: الإصابة، الودق: المطر، الجود: المطر التام العام، الرواعد: ذوات الرعد من السحاب، لرِهام والرِهَم: جمعا رِهمة وهي المطرة التي فيها لين. السارية: السحابة الماطرة ليلًا، المدجن: الملبس آفاق السماء بظلامه لفرط كثافته، والدجن: إلباس الغيم آفاق السماء، الإرزام: التصويت، الأيهقان، بفتح الهاء وضمها: ضرب من النبت وهو الجرجير البري. الجلهتان: جانبا الوادي، العين: واسعات العيون. الطَّلا: ولد الوحش حين يولد إلى أن يأتي عليه شهر، العوذ: الحديثات النتاج، الإجل: القطيع من بقر الوحش، الفضاء: الصحراء. البهام: أولاد الضأن إذا انفردت وإذا اختلطت بأولاد الضأن أولاد المعز قيل للجميع بهام، جلا: كشف، يجلو جلاء؛ وجلوت العروس جلوة من ذلك، وجلوت السيف جلاء صقلته، الزبر: جمع زبور وهو الكتاب والزَّبْر الكتابة، الرجع: الترديد والتجديد، الإسفاف: الذَّرّ ، النئور: النقش الْمتّخذ من دخان السراج والنار، وقيل النيلج. الكِفَف: جمع كفة وهي الدارات، وأعرض: ظهر ولاح. الوشام، جمع وشم؛ شبه ظهور الأطلال بعد دروسها بتجديد الكتابة وتجديد الوشم. الصم: الصِّلاب، خوالد: بواق، يبين: يظهر بان يبين بيانًا.

عَرِيَتْ وَكَانَ بِهَا الْجَمِيعُ فَأَبْكَرُوا	مِنْهَا وَغُودِرَ نُؤيُهَا وَثُمَامُهَا[1]
شَاقَتْكَ ظُعْنُ الْحَيِّ حينَ تَحَمّلوا	فَتَكَنّسُوا قُطُنًا تَصِرّ خِيامُها
مِنْ كُلّ مَحفُوفٍ يُظِلّ عِصيَّهُ	زَوْجٌ عَلَيْهِ كِلَّةٌ وَقِرَامُها
زُجَلًا كأنّ نِعاجَ تُوضِحَ فَوْقَهَا	وَظِبَاء وَجْرَةَ عُطَّفًا أَرْآمُهَا
حُفِزَتْ وَزَايَلَهَا السَّرَابُ كَأَنَّهَا	أَجْزَاعُ بِيشَةَ أَثْلُهَا وَرِضَامُهَا
بَلْ ما تَذَكَّرَ من نَوَارَ وقَد نأتْ	وَتَقَطّعَتْ أَسبابُها وَرِمَامُهَا
مُرّيّةٌ حلّتْ بفَيْدَ وَجَاوَرَتْ	أهْلَ الْحِجازِ فأينَ منكَ مَرَامُها
بِمَشَارِقِ الْجَبَلَيْنِ أَوْ بِمُحَجَّرٍ	فَتَضَمّنَتْهَا فَرْدَةٌ فَرُخامُهَا
فَصُوَائِقٌ إنْ أَيْمَنَتْ فَمِظَنّةٌ	فيها وِحَافُ القَهْرِ أَوْ طِلْخامُها
فَاقْطَعْ لُبَانَةَ مَنْ تَعَرَّضَ وَصْلُهُ	وَلَشَرُّ وَاصِلِ خُلةٍ صَرّامُها

---

[1] ابتكرت وبكّرت بمعنىً، أي سرت منه بكرة. المغادرة: الترك غادرت الشيء تركته وخلّفته، الثمام: ضرب من الشجر رخو يسد به خلل البيوت. التكنس: دخول الكنائس والاستكنان به. القطن: جمع قطين وهو الجماعة، والقطن واحد. الصرير: صوت الباب والرحل، حفَّ الهودج وغيره بالثياب: إذا غطي بها، وحف الناس حول الشيء أحاطوا به. أظلّ الجدار الشيء: إذا كان في ظل الجدار. العصي هنا: عيدان الهودج. الزوج: النمط من الثياب، الكِلّة: الستر الرقيق، والجمع الكلل. القرام: الستر، الزجل: الجماعات، النعاج: إناث بقر الوحش، وجرة: موضع بعينه. الطعف: جمع العاطف من العطف الذي هو الترحم أو من العطف الذي هو الثني، الأرآم: جمع الرئم وهو الظبي الخالص البياض. الحفز: الدفع، الأجزاع: جمع جزع وهو منعطف الوادي. بيشة: واد بعينه. الأثل: شجر يشبه الطرفاء إلا أنه أعظم منها. الرضام: الحجارة العظام، نوار: اسم امرأة يشبب بها. النأي: البعد. الرمام: جمع الرمة وهي قطعة من الحبل خَلِقَة ضعيفة. مرية: منسوبة إلى مرّة. فيد: بلد معروفة، عنى بالجبلين: جبلي طي أجأ وسلمى. المحجر: جبل آخر. فردة: جبل منفرد عن سائر الجبال سمي بها لانفرادها عن الجبال. رخام: أرض متصلة لذلك أضافها إليها. صوائق: موضع معروف. وحاف القهر، بالراء غير معجمة: موضع معروف، طلخام: موضع معروف، اللُّبانة: الحاجة، الْخُلَّة: المودة المتناهية، الصرّام: القطّاع.

٥- عمرو بن كلثوم :

هو: عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب بن زهير التغلبي، من بني تغلب بن وائل، وينتهي نسبه إلى معد بن عدنان، وأمه هي ليلي بنت مهلهل الذي هو أخو كليب المشهور. وقد ساد عمرو بن كلثوم قومه وهو ابن خمسة عشر عامًا. ومات وله من العمر مائة وخمسون سنة "١٥٠".

يقول الزوزني: كان عمرو بن كلثوم نصرانيًّا، على الأغلب، وذلك لأن نصرانية تغلب ثابتة حتى القرن الثالث والرابع بعد الهجرة، لكنّ ليس في ديوانه وأخباره التي وصلت إلينا ما يؤكد ذلك. أما صفاته وأخلاقه، فيظهر من أخباره وشعره، أنه كان فارسًا مقدامًا، سيدًا في قومه، شاعرًا مفلقًا، شديد الأنفة إلى حد الكبرياء، فخورًا بنفسه وبقبيلته إلى حد الادِّعاء الصبياني، كريْمًا سخيًّا ، فاتكًا، وقد ضرب المثل بفتكه، فقيل: "أفتك من عمرو بن كلثوم" ولعل سبب هذا القول فتكه بالملك عمر بن هند. وكانت وفاته سنة ٦٠٠ لميلاد المسيح عليه السلام، وسنة ٥٢ قبل الهجرة النبوية. وله من العمر خمسون سنة ومائة "١٥٠".

كان شاعرًا فحلًا مطبوعًا، صافي الديباجة، كثير الطلاوة، حسن السبك، واضح المعاني، شديد الفخر، قوي الشكيمة في الحماسة.

معلقة عمرو بن كلثوم أشهر شعره وأشعره. وهي حماسية فخرية. وما وصل إلينا منها هو جزء يسير منها. وقد قام عمرو بها خطيبًا في سوق عكاظ، وقام بها في موسم مكة. وبنو تغلب تعظمها جدًّا، ويرويها صغارهم وكبارهم. **ومن معلقته:**

أَلَا هُبّي بصحنِكِ فاصبحينا / وَلَا تُبْقِي خُمُورَ الأَنْدَرِينا[1]

مُشَعْشَعَةً كَأَنّ الْحُصَّ فِيهَا / إِذَا مَا الْمَاْءُ خَالَطَهَا سَخِينَا

تَجُورُ بِذِي اللُّبَانَةِ عَنْ هَوَاهُ / إِذَا مَا ذَاقَهَا حَتَّى يَلِينَا

تَرَى اللَّحِزَ الشَّحِيحَ إِذَا أُمِرَّتْ / عَلَيهِ لِمَالِهِ فِيهَا مُهِينَا

صَبَنْتِ الكَأسَ عَنّا أمَّ عمروٍ / وَكَانَ الكأسُ مَجراهَا الْيَمِينَا

وَمَا شَرُّ الثَّلاثَةِ أمَّ عمروٍ / بِصَاحِبِكِ الذي لا تَصْبَحِينَا

وكَأسٍ قَدْ شَرِبْتُ بِبَعْلَبَكٍّ / وَأُخْرَى فِي دِمَشْقَ وَقَاصِرِينا

وَإنّا سَوْفَ تُدْرِكُنا الْمَنَايَا / مُقَدَّرَةً لَنَا ومُقَدَّرِينا

قِفِي قَبلَ التَفَرُّقِ يا ظَعينا / نُخَبِّرْكِ اليَقينا وَتُخبِرينا

قِفِي نَسأَلكِ هَل أَحدَثتِ صَرمًا / لِوَشكِ البَينِ أَم خُنتِ الأَمِينَا

بِيَومِ كَريهَةٍ ضَرِبًا وَطَعنًا / أَقَرَّ بِهِ مَواليكِ العُيونا

وَإنّ غَدًا وإنّ اليومَ رَهْنٌ / وَبَعْدَ غَدٍ بِمَا لَا تَعْلَمِينَا

تُرِيكَ إِذَا دَخَلْتَ عَلَى خَلَاءٍ / وَقَدْ أَمِنَتْ عُيُونَ الْكَاشِحِينَا

ذِراعَيْ عَيطَلٍ أدماءَ بِكْرٍ / هِجَانِ اللَّونِ لَم تَقرأ جَنينًا

---

[1] هبّ من نومه هبًّا: إذا استيقظ. الصحن: القدح العظيم، والجمع الصحون. الصبح: سقي الصبوح، والفعل صبح يصبح. أبقيت الشيء وبقيته بمعنى. الأندرون: قرى بالشام، شعشعت الشراب: مزجته بالماء. الحص: الورس نبت له نوّار أحمر يشبه الزعفران. اللحز: الضيق الصدر. الشحيح: البخيل الحريص، الصبن: الصرف، والظعينة: المرأة في الهودج، سميت بذلك لظعنها مع زوجها، فهي فعيلة بمعنى فاعلة، الصرم: القطيعة. الوشك: السرعة، والوشيك: السريع. الأمين: بمعنى المأمون. الكريهة: من أسماء الحرب، الكاشح: المضمر العداوة في كشحه، العيطل: الطويلة العنق من النوق. الأدماء: البيضاء منها. والأُدْمة البياض في الإبل، البِكْر: الناقة التي حملت بطنًا واحدًا، الهجان: الأبيض الخالص البياض.

وَثَـدْيًا مِثْـلَ حُـقّ العَـاجِ رَخْصًـا حَصـانًا مِـنْ أكُـفِ اللّامِسِـينَا[١]

وَمَتْنَـي لَدْنَـةٍ سَـمَقَتْ وَطالَـت رَوادِفُهـا تَنُـوءُ بِمـا وَلينـا

وَمَأكَمَـةً يَضـيقُ البـابُ عَنهـا وَكَشـحًا قَـد جُنِنـتُ بِـهِ جُنونـا

وَسـارِيَتَي بَلَـنطٍ أَو رُخـامٍ يَـرِنُّ خُشـاشُ حَليِهِمـا رَنينًـا

فَمَـا وَجَـدَت كَوَجـدي أُمٌّ سَـقبٍ أَضَـلَّتهُ فَرَجَّعَـتِ الْحَنينـا

وَلا شَـمْطاءُ لَـم يَتـرُك شَـقاها لَهـا مِـن تِسـعَةٍ إِلّا جَنينًـا

---

[١] رخصًـا: لينـا. حصـانًا: عفيفـة، اللـدن: اللـين، والجمـع لُـدن، أي ومتنـي قامـة لدْنَـة. السُّموق: الطول، والفعل سمق يسمق، الرادفتان والرانفتان: فرعا الأليتين، والجمع الروادف والروانف. النَّوء: النهوض فـي تثاقل. الـوَلْيُ: القرب، والفعل ولـي يلـي. المأكَمـة والمأكِمـة: رأس الـورك والجمـع المآكم. البلنط: العاج. السارية: الأسطوانة والجمع السواري. الرنين: الصوت. والسقب بمنزلة الصبي، الوجد: الحزن، الشمط: بياض الشعر. الجنين: المستور في القبر هنا.

٦- عنترة بن شداد:

عنترة بن شداد بن عمرو بن معاوية بن قراد العبسي، من أهل نجد وينتهي نسبه إلى مضر. ويلقب عنترة: بالفَلحاء، فيقال: عنترة الفلحاء. وكانت أمه أَمَةً حبشية يقال لها: زبيبة، وكان لها أولاد عبيد من غير شدَّاد، وكانوا أخوة عنترة لأمه.

وكان أبوه قد نفاه، وكان العرب في الجاهلية إذا كان لأحدهم ولد من أمه استعبده، ثم ادَّعاه بعد الكبر واعترف به وألحقه بنسبه. وكان سبب ادعاء أبيه إياه أن بعض أحياء العرب أغاروا على بني عبس فأصابوا منه واستاقوا إبلًا فتبعهم العبسيون فلحقوهم فقاتلوهم عمّا معهم، وعنترة يومئذ فيهم، فقال له أبوه: "كِرّ يا عنترة" فقال عنترة: "العبد لا يحسن الكر، إنما يحسن الْحِلاب والصّر" فقال: "كرَّ وأنت حر". فَكرَّ، وقاتل يومئذ قتالًا حسنًا فادَّعاه أبوه بعد ذلك وألحقه بنسبه.

وهو من الشعراء الفرسان، وكان شاعر بني عبس وفارسهم المشهور، وكان جرئيًا شديد البطش. وكان مع شدة بطشه لَيِّن الطباع حليمًا، سهل الأخلاق، لطيف الحاضرة. وكان من أشد أهل زمانه وأجودهم بما ملكت يداه. وكان سَمْحًا أَبِيَّ النفس لا يقر على ضيم ولا يغمض على قذى .

كانت البطولة الحربية ووصف المعارك أبرز الموضوعات التي تطرق إليها الشاعر في قصائده المختلفة فحاول أن يرسم لنا في قصائده صورة كاملة عن الفارس الشجاع الذي يخوض ساحات القتال وميدان الأبطال. ومن خلال صورة المقاتل الشجاع يستطيع عنترة أن يؤكد فكرة حريته وجدارته بهذه الحرية وبالتالي جدارته بحب ابنة عمه عبلة. ويحاول أن يربط بين فكرة البطولة وفكرة الحب، **ومن معلقته:**

هَـلْ غَـادَرَ الشّـعَرَاءُ مِـنْ مُتَـرَدَّمِ أَمْ هَـلْ عَرَفْـتَ الـدّارَ بَعْـدَ تَـوَهُّمِ[1]

يَـا دَارَ عَبْلَـةَ بِـالْجِوَاءِ تَكَلَّمِـي وَعِمِـي صَبَاحًا دَارَ عَبْلَـةَ وَاسْلَمِي

فَوَقَفْـتُ فِيهـا نَـاقَتِي وكَأَنَّهـا فَـدَنٌ لأَقْضِـيَ حَاجَـةَ الْمُتَلَـوِّمِ

وَتَحُـلّ عَبْلَـةُ بِـالْجِوَاءِ وَأَهْلُنَـا بِـالْحَزْنِ فَالصَّـمَانِ فَـالْمُتَثَلَّمِ

حُيِّيـتَ مِـنْ طَلَـلٍ تَقَـادَمَ عَهْـدُهُ أَقْـوَى وَأَقْفَـرَ بَعْـدَ أُمّ الْهَيْـثَمِ

حَلّـتْ بِـأَرْضِ الزَّائِـرِينَ فأصْبَحَتْ عَسِـرًا عَلَـيّ طِلابُـكَ ابنَـةَ مَخْـرَمِ

عُلّقْتُهَـا عَرَضًـا وَأَقْتُـلُ قَوْمَهَـا زَعْمًـا لعَمْـرُ أبيـكَ لَـيسَ بِمَـزْعَمِ

وَلَقَـدْ نَزَلْـتِ فَـلَا تَظُنِّـي غَيْـرَهُ مِنِّـي بِمَنْزِلَـةَ الْمُحِـبِّ الْمُكْـرَمِ

كَيْـفَ الْمَـزَارُ وَقَـدْ تَرَبّـعَ أَهْلُهَـا بِعُنَيْـزَتَيْنِ وَأَهْلُنَـا بِـالغَيْلَمِ

إِنْ كُنْـتِ أَزْمَعْـتِ الفِـرَاقَ فَإِنَّمَـا زُمّـتْ رِكَـابُكُمْ بِلَيْـلٍ مُظْلِـمِ

مَـا رَاعَنِـي إِلَّا حَمُولَـةُ أَهْلِهَـا وَسْـطَ الـدّيارِ تَسَـفّ حَـبَّ الْخِمخِـمِ

فِيهَـا اثْنَتَـانِ وَأَرْبَعُـونَ حَلُوبَـةً سُـودًا كخافِيَـةِ الغُـرَابِ الأَسْـحَمِ

إِذْ تَسْـتَبِيكَ بِـذِي غُـرُوبٍ وَاضِـحِ عَـذْبٍ مُقَبّلُـهُ لَذِيـذِ الْمَطْعَـمِ

وَكَـأَنّ فَـارَةَ تَـاجِرٍ بِقَسِـيمَةٍ سَبَقَتْ عَوَارِضَـهَا إِلَيكَ مـن الفَـمِ

[1] المتردم: الموضع الذي يسترقع ويستصلح لما اعتراه من الوهن والوهي، والتردم أيضًا مثل الترنم، وهو ترجيع الصوت مع تحزين. الجو: الوادي والجمع الجواء، والجواء في البيت موضع بعينه. عبلة: اسم عشيقته، الفدن: القصر، والجمع الأفدان. المتلوم: المتمكث. الإقواء والإقفار: الخلاء، جمع بينهما لضرب من التأكيد، الزائرون: الأعداء، جعلهم يزأرون زئير الأسد، شبه توعدهم وتهددهم بزئير الأسد. قوله: عرضًا، أي فجأة من غير قصد له. التربع: الإقامة زمن الربيع. الإزماع: توطين النفس على الشيء. الركاب: الإبل، لا واحد لها من لفظها، وقال الفراء: واحدها ركوب مثل قلوص وقلاص. راعه روعًا: أفزعه. الحمولة: الإبل التي تطيق أن يحمل عليها. وسْطَ بتسكين السين، لا يكون إلا ظرفًا، والوسَط، بفتح السين، اسم لما بين طرفي الشيء. الخمخم: نبت تعلفه الإبل. السف والاستفاف معروفان. الحلوبة: جمع الحلوب عند البصريين، الأسحم: الأسود. الخوافي من الجناح: أربع من ريشها، الاستباء والسبي واحد. غرب كل شيء: حدّه والجمع غُروب، الوضوح: البياض. المقبل: موضع التقبل. المطعم: الطعم. أراد بالتاجر: العطار. سميت فارة المسك فارة لأن الروائح الطيبة تفور منها.

أَوْ رَوْضَــةً أُنُفًــا تَضَــمّن نَبْتَهَــا غَيْـثٌ قَليـلُ الـدِّمْنِ لـيسَ بِمَعْلَـمِ[1]

جَــادَتْ عَلَيْــهِ كُــلُّ بِكْــرٍ حُــرَّةٍ فَتَــرَكْنَ كُــلَّ قَــرَارَةٍ كالــدّرْهَمِ

سَــحًّا وَتَسْــكابًا فَكُــلَّ عَشِــيّةٍ يَجْـرِي عَلَيهَـا الْمَـاءُ لَـمْ يَتَصَـرّمِ

وَخَـلَا الـذُّبابُ بِهَـا فَلَـيْسَ بِبَـارحٍ غَــرِدًا كَفِعْــلِ الشَّــارِبِ الْمُتَــرَنِّمِ

هَزِجًــا يَحُــكّ ذِرَاعَــهُ بِذِرَاعِــهِ قَـدْحَ الْمُكِـبّ عَلَـى الزّنَـادِ الأَجْـذَمِ

تُمْسِي وَتُصْبحُ فَوْقَ ظَهْرِ حشيّةٍ وَأَبِيـتُ فَـوْقَ سَـرَاةِ أَدهَـمَ مُلجِـمِ

---

[1] روضة أُنُف: لم ترع بعد، وكأس أنف استؤنف الشرب بها، وأمر أنف مستأنف، وأصله كله من الاستئناف والائتناف وهما بمعنى. الدِّمَن والدِّمْن: جمع دمنة وهي السرجين، البَكر من السحاب: السابق مطره، والجمع الأبكار. الحُرَّة: الخالصة من البرد والريح. والحر من كل شيء: خالصه وجيده، القرارة: الحفرة. السَّحُّ: الصّب والانصباب، التصرم الانقطاع. البراح: الزوال، والفعل برح يبرح. التغريد: التصويت، والفعل غرّد، والنعت غُرِدٌ. الترنم: ترديد الصوت بضرب من التلحين. هزجًا: مصوّتًا. المكب: المقبل على الشيء. الأجذم: الناقص اليد. السراة: أعلى الظهر.

يقول: تصبح وتمسي فوق فراش وطيء وأبيت أنا فوق ظهر فرس أدهم ملجم، يقول: هي تتنعم وأنا أقاسي شدائد الأسفار والحروب.

٧- الحارث بن حِلِّزَة اليشكري :

هو: أبو عبيدة الحارث بن حلزة بن مكروه، من أهل العراق. وينتهي نسبه إلى: يشكر بن بكر بن وائل، وينتهي نسب وائل إلى نزار بن مَعَدّ بن عدنان. وقد شهد الحارث بن حلزة حرب البسوس.

كان الحارث بن حلزة خبيرًا بقرض الشعر ومذاهب الكلام، ومعلقته قد جمعت طائفة من أيام العرب وأخبارها، ووَعَت ضروبًا من المفاخر يقام لها ويقعد. وقد ارتجلها بين يدي عمرو بن هند الملك وهو غضبان متوكئ على قوسه. وقيل: بل كان قد أعدها قبل ذلك. وليس ببعيد عن الصواب. لما سترى من اختلاف الرواية في ذلك.

أما شعره فهو قليل جدًّا لأنه كان من المقلين. وإنما اشتهر بمعلقته هذه التي رفعت من قدره، وجعلته في صف شعراء الجاهلية المجيدين.

ومن معلقته:

آذَنَتنا بِبَينِها أَسماءُ ... رُبَّ ثاوٍ يُمَلُّ مِنهُ الثَواءُ[١]

بَعْدَ عَهدٍ لَها بِبُرقَةِ شَمّا ... ءَ فَأَدْنَى ديارَها الْخَلْصَاءُ

فَالْمُحيّاةُ فَالصِّفاحُ فَأَعنا ... ق فِتاقٍ فَعَاذِبٌ فَالوَفاءُ

---

[١] الإيذان: الإعلام. البين: الفراق. الثواء والثُّويّ: الإقامة، والفعل ثوى يثوي. العهد: اللقاء والفعل عهد يعهد.

فَرِيــاضُ القَطــا فَأَودِيَــةُ الشُّــرْ بُـــبِ فَالشُّـــعْبَتَانِ فَـــالأَبْلاءُ[1]

لا أرى مَن عَهِدتُ فيها فَأَبكي الـ ـيَومَ دَلْهًــا وَمــا يُحِيــرُ البُكــاءُ

وَبِعَيْنَيْــكَ أَوْقَــدَتْ هِنْــدٌ النَّــا رَ أخيــرًا تُلْــوِي بِهَــا العَلْيَــاءُ

فَتَنَـــوَّرْتُ نَارَهَـــا مِـــنْ بَعيـــدٍ بِخَـزَازَى هَيْهَـاتَ مِنْـك الصِّـلاءُ

أَوْقَـدَتْهَا بَـيْنَ العَقِيـقِ فَشَخْصَيْـ ـنِ بِعُـودٍ كَمَـا يَلُـوحُ الضِّـياءُ

غَيْرَ أنـي قَدْ أسْتَعِينُ عَلَـى الْهَـمّ إِذَا خَـــفّ بِـــالثَّوِي النَّجَـــاءُ

بِزَفُـــوفٍ كَأَنَّهَـــا هِقْلَـــةٌ أُ مٌّ رِئَـــالٍ دَوِّيّـــةٍ سَـــقْفَاءُ

آنَسَـــتْ نَبْـــأَةً وَأَفْزَعَهَـــا القُـــ ـنَّاصُ عَصْـرًا وَقَـدْ دَنَـا الإِمْسَـاءُ

فَتَـرَى خَلْفَهَـا مِـنَ الرَّجْـعِ وَالوَقْـ ـــعِ منينـــا كأنـــه إهبـــاء

وَطِرَاقًـا مِـنْ خَلْفِهِـنّ طِـرَاقٌ سَـاقِطَاتٌ أَلْـوَتْ بِهَـا الصَّـحْراءُ

أَتَلَهّـى بِهَـا الْهَـوَاجِرَ إِذْ كُـلّ ابْـنِ هَـمٍّ بَلِيَّـةٌ عَمْيَـاءُ

وَأَتَانَـا مِـنَ الْحَـوَادِثِ والأَنْبَـا ءِ خَطْـبٌ نُعْنَـى بِـهِ وَنُسَـاءُ

إنّ إِخْوَانَنَـا الأَراقِـمَ يَغْلُـو نَ عَلَيْنَـا فِـي قِـيلِهِمْ إِحْفَـاءُ

---

[1] القَطا، فَأَودِيَةُ الشُّرْ، بُبِ فَالشُّعْبَتَانِ فَالأَبْلاءُ: هذه كلها مواضع عهدها بها. الإحارة: الرد، من قولهم: حار الشيء يحو حورًا، أي رجع، وأحرته أنا أي رجعته فرددته. ألوى بالشيء: أشار به. العلياء: البقعة العالية. التَّنَوُّرُ: النظر إلى النار. خزازى: بقعة بعينها. هيهات: بعدُ الأمر جدًّا. الصلاء مصدر صَلْيِ النَّار، وصَلِيَ بالنار يصلى صِلَىً وَصِلَاءً إذا احترق بها أو ناله حرّها. غير أني: يريد ولكني، انتقل من النسيب إلى ذكر حاله في طلب المجد. الثويّ والثاوي: المقيم. النّجاء: الإسراع في السير. الزَّفيف: إسراع النعامة في سيرها ثم يستعار لسير غيرها، والفعل زفّ يزف، والنعت زافّ، والزفوف مبالغة. الهقلة: النعامة، والظليم هقل. الرأل: ولد النعامة، والجمع رئال، الدوِّية: منسوبة إلى الدوّ وهي المفاز ١. السقف: طول مع انحناء، والنعت أسقف. النَّبْأَةُ: الصوت الخفي يسمعه الإنسان أو يتخيله. القُنّاص. جمع قانص وهو الصائد. الإفزاع: الإخافة. العصر: العشي. المنين: الغبار الرقيق. الأهباء: جمع هباء، والإهباء إثارته. الطراق: يريد بها أطباق نعلها. ألوى بالشيء: أفناه وأبطله، وألوى بالشيء أشار به. يقول: أتلعب بها في أشد ما يكون من الحر إذا تحيَّر صاحب كل هم تحير الناقة البلية العمياء. الأراقم: بطون من تغلب، سموا بها لأن امرأة شبهت عيون آبائهم بعيون الأراقم٢. الغلو: مجاوزة الحد. الإحفاء: الإلحاح

يَخْلِطُـونَ البَـرِيءَ مِنَّـا بِـذِي الذَّنْـ ... بِ وَلا يَنْفَـــعُ الْخَلِـــيَّ الْخَـــلَاءُ[1]

زَعَمُـوا أَنَّ كُـلَّ مَـنْ ضَـرَبَ العَيْـ ... ـــرَ مُـــوالٍ لَنَـــا وأَنّـــا الـــوَلاءُ

أَجْمَعُـــوا أَمْـــرَهُمْ عِشَـــاءً فَلَمّـــا ... أَصْـبَحُوا أَصْـبَحَتْ لَهُـمْ ضَوضَـاءُ

مِـنْ مُنَـادٍ وَمِـنْ مُجِيـبٍ وَمِـنْ تَصْـ ... هَـــالِ خَيْـــلٍ خِـــلَالَ ذَاكَ رُغَـــاءُ

***

[1] يريد بالخلي: البريء الخالي من الذنب. العير في هذا البيت يفسر: بالسيد، والحمار، والوتد، والقذى، وجبل بعينه. قوله: وأنَّا الولاء، أي أصحاب ولائهم، فحذف المضاف، ثم إن فسر العير بالسيد، الضوضاء: الجلبة والصياح. إجماع الأمر: عقد القلب وتوطين النفس عليه. يقول: أطبقوا على أمرهم من قتلنا وجدالنا عشاء، فلما أصبحوا جلبوا وصاحوا. التصهال كالصهيل، وتفعال لا يكون إلا مصدرًا، وتِفعال لا يكون إلا اسْمًا. يقول: اختلطت أصوات الداعين والمجيبين والخيل والإبل، يريد بذلك تجمعهم وتأهبهم.

ب- المفضليات:

نسبة إلى صاحبها المفضل الضّبّي راوي الكوفة الثقة. وقد نشرت بشرح ابن الأنباري، وهي مائة وست وعشرون قصيدة، أضيفت إليها أربع قصائد وجدت في بعض النسخ، وفي مقدمة الشرح سند كامل لها يرفعه ابن الأنباري إلى ابن الأعرابي. وهي موزعة على سبعة وستين شاعراً، منهم سبعة وأربعون جاهلياً، وعلى رأسهم المرقشان الأكبر والأصغر، والحارث بن حلزة، وعلقمة بن عبده، والشَّنْفَرَى، وبِشْر بن أبي خازم، وتأبط شرّاً، وعوف بن عطية، وأبو قيس بن الأسلت الأنصاري، والمسيب، وبينهم امرأة من بني حنيفة، ومجهول من اليهود، ومسيحيان هما عبد المسيح بن عسلة الشيباني ثم جابر بن التغلبي.

وقد مثلت هذه المجموعة جوانب الحياة الجاهلية وعلاقات القبائل بعضها ببعض وبملوك الحيرة والغساسنة، وانطبعت في كثير منها البيئة الجغرافية. وقد جاء فيها غير قليل من الكلمات المندثرة التي لم ترد في المعاجم اللغوية.

ج- الأصمعيات:

نسبة إلى الأصمعي راويها. وقد بلغ عدد قصائدها ومقطوعاتها اثنتين وتسعين وهي موزعة على ٧١ شاعراً منهم نحو ٤٠ جاهلياً، على رأسهم امرؤ القيس، والحارث بن عباد، ودريد بن الصمة، وأبو دؤاد الإيادي، وذو الإصبع العدواني، وسلامة بن جندل، وطرفة، وعروة بن الورد، وقيس بن الخطيم. وبينهم يهوديان هما شعية بن الغريض والسموأل.

د- جمهرة أشعار العرب :

وهي لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي. وتضم تسعاً وأربعين قصيدة طويلة موزعة على سبعة أقسام، في كل قسم سبع قصائد، والقسم الأول: خاص بأصحاب المعلقات، وهم امرؤ القيس، وزهير، والنابغة، والأعشى، ولبيد، وعمرو بن كلثوم، وطرفة؛ والقسم الثاني خاص بأصحاب المجمهرات وهي لعبيد بن الأبرص، وعدي بن زيد، وبشر بن أبى خازم، وأمية بن أبي الصلت، وخداش بن زهير، والنمر بن تولب، وعنترة.

والقسم الثالث أصحاب المنتقيات أي المختارات وهم: المسيب بن علس، والمرقش الأصغر، والمتلمس، وعروة بن الورد، والمهلهل بن ربيعة، ودريد بن الصمة، والمتنخل بن عويمر الهذلي.

والقسم الرابع أصحاب المذهبات وجميعها لشعراء من الأنصار جاهليين أو مخضرمين، وهم: حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، ومالك بن العجلان، وقيس بن الخطيم، وأحيحة بن الجلاح، وأبو قيس بن الأسلت، وعمرو بن امرئ القيس، وجميعهم من الأوس والخزرج.

والقسم الخامس أصحاب المراثي وهم: أبو ذؤيب الهذلي، وعلقمة بن ذي جدن الحميري، ومحمد بن كعب الغنوي، وأعشى باهلة، وأبو زيد الطائي، ومالك بن الريب، ومتمم بن نويرة.

والقسم السادس: أصحاب المشوبات وهي لمخضرمين شابهم الكفر والإسلام، وهم: نابغة بنى جعدة، وكعب بن زهير، والقطامي، والحطيئة، والشماخ، وعمرو بن أحمر، وتميم بن أبى مقبل. والقسم السابع: أصحاب الملحمات أي الملحمات النظم وجميعها

لإسلاميين، وهم: الفرزدق، وجرير، والأخطل، وعبيد الراعي، وذو الرمة، والكميت، والطرماح. وهي مجموعة غنية بالقصائد الطويلة، ولكنها غير موثقة الرواية.

هـ - مختارات ابن الشجري المتوفى عام ٥٤٢هـ.

وهي مختارات من شعر جاهلي وإسلامي، موزعة على ثلاثة أقسام، وأهم من في القسم الأول الشنفرى، وطرفة، ولقيط الإيادي، والمتلمس. أما القسم الثاني فمختارات من ديوان الحطيئة.

و- كتب الحماسات

ديوان الحماسة لأبي تمام المتوفى عام ٢٣١هـ. وحماسته موزعة على عشرة أبواب، أكبرها باب الحماسة. وهي مقطوعات لجاهليين وإسلاميين وعباسيين. وقلما روى فيها قصائد كاملة.

وتلي هذه الحماسة في الأهمية حماسة البحتري المتوفى ٢٨٤هـ، وهي مقطوعات قصيرة موزعة على مائة وأربعة وسبعين باباً، وأكثر أبوابها في نزعات خلقية. ولم يعن القدماء بشرحها.

ولابن الشجري صاحب المختارات حماسة طبعت في حيدر آباد، وأغلب منتخباتها من الشعر الجاهلي، وقد سار في تصنيف حماسته وفقاً لتصنيف أبي تمام من حيث تقسيمها إلى أبواب، يضم كل باب منها ما قيل في فن من فنون الشعر العربي، ولكنه مع ذلك خالفه في عدد هذه الأبواب، فكانت عنده تسعة في حين كانت عند أبي تمام عشرة فقد أسقط في حماسته باب السير والنعاس.

ونجد في حماسة أبي تمام مذمة النساء، ولا نظير له في الحماسة الشجرية، وإنما يحل محله باب آخر هو باب اللوم والعتاب.

ويستهل أبو تمام حماسته بباب الحماسة، وهو أضخم الأبواب فيها، أما ابن الشجري فيستخدم لأول أبواب حماسته وأضخمها تسمية باب الشدة والشجاعة.

وقد اختار ابن الشجري في حماسته لثلاثمائة وخمسة وستين شاعراً، وقد امتد في اختياراته إلى بعض معاصريه من القرن السادس الهجري.

***

الانتحال والشك في الشعر الجاهلي [1]

أشار بعض الباحثين إلى أن الشعر الجاهلي دخل فيه انتحال كثير، وقد أشار إلى ذلك القدماء مرارًا وتكرارًا، وحاولوا جاهدين أن ينفوا عنه الزيف وما وضعه الوُضَّاع متخذين إلى ذلك مقاييس كثيرة، وبلغ من حرصهم في هذا الباب أن أهمل ثقاتهم كل ما رُوي عن المتهمين أمثال حماد وخلف، وكان الأصمعي خاصة لهم بالمرصاد، كما كان المفضل الضبي من قبله، وتتابع الرواة الأثبات بعدهما يحققون ويمحصون في التراث.

ومن أهمهم في هذا الجانب ابن سلام؛ فقد دون في كتابه "طبقات فحول الشعراء" كثيرًا من ملاحظات أهل العلم والدراية في رواية الشعر القديم من أساتذة المدرسة البصرية التي ينتسب إليها، وأضاف إلى ذلك كثيرًا من ملاحظاته الشخصية.

وهذا الكتاب في الحقيقة هو أول كتاب أثار في إسهاب مشكلة الانتحال في الشعر الجاهلي، وقد ردها إلى عاملين: عامل القبائل التي كانت تتزيد في شعرها لتتزيد في مناقبها، وعامل الرواة الوضاعين، يقول: لما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها استقل بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائعهم، وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار؛ فقالوا على ألسن شعرائهم، ثم كانت الرواة بعد فزادوا في الأشعار .

---

[1]- راجع في ذلك: مصادر الشعر الجاهلي: د/ ناصر الدين الأسد، دار المعارف بمصر، الطبعة السابعة ١٩٨٨. في تاريخ الأدب الجاهلي: د/ علي الجندي، مكتبة دار التراث، طبعة دار التراث الأول، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م

فالقبائل كانت تتزيد في أشعارها وتروي على ألسنة الشعراء ما لم يقولوه، وقد أشار ابن سلام مرارًا إلى ما زادته قريش في أشعار الشعراء؛ فهي تضيف إلى شعرائها منحولات عليهم، وقد أضافت كثيرًا إلى شعر حسان، ويذكر أن من أبناء الشعراء وأحفادهم من كان يقوم بذلك، مثل داود بن متمم بن نُويرة؛ فقد استنشده أبو عبيدة شعر أبيه متمم، ولاحظ أنه لما نفد شعر أبيه جعل يزيد في الأشعار ويضعها، وإذا كلامٌ دون كلام متمم، وإذا هو يحتذي على كلامه؛ فيذكر المواضع التي ذكرها متمم والوقائع التي شهدها؛ فلما توالى ذلك علم أبو عبيدة ومن كانوا معه أنه يفتعله .

ولعل في هذا ما يدل على أن الرواة من مثل أبي عبيدة كانوا يراجعون ما ترويه القبائل، وكانوا يرفضون منه ما يتبين لهم زيفه؛ إما بالرجوع إلى أصول صحيحة أو إلى أذواقهم وما يحسنون من نقد الشعر ومعرفتهم بالشاعر ونظمه، ويسوق لنا ابن سلام شكًّا في قصيدة أبي طالب التي روتها قريش في أشعارها والتي يمدح بها الرسول صلى الله عليه وسلم، ومعنى ذلك أنهم نظروا في شعر قريش فقبلوا منه ورفضوا. فهم يفحصون ويحققون في شعر المدينة كما فحصوا وحققوا في شعر قريش وغيرها من القبائل.

ويقدم لنا ابن سلام طائفتين من الرواة كانتا ترويان منتحلًا كثيرًا وتنسبانه إلى الجاهليين، طائفة كانت تحسن نظم الشعر وصوغه وتضيف ما تنظمه وتصوغه إلى الجاهليين، ومثَّل لها بحماد، ورأينا فيما مر بنا أشباهًا له في جَنَّاد وخلف الأحمر، وطائفة لم تكن تحسن النظم ولا الاحتذاء على أمثلة الشعر الجاهلي؛ ولكنها كانت تحمل كل غثاء منه وكل زيف، وهم رواة الأخبار والسير والقصص، من مثل ابن إسحاق راوي السيرة النبوية؛ إذ كانت تصنع له الأشعار ويدخلها في سيرته دون تحرز أو تحفظ، منطقًا بالشعر العربي من لم ينطقوه من قوم عاد وثمود والعماليق وطسم وجديس.

ورفض ابن سلام والأصمعي وأضرابهما رواية الطائفتين جميعًا؛ فلم يقبلوا شيئًا مما يرويه أشباه حماد إلا أن يأتيهم من مصادر وثيقة، وكذلك لم يقبلوا شيئًا مما يرويه ابن إسحاق لا عن الأمم البائدة فحسب؛ بل عن عرب الجاهلية أنفسهم؛ إلا أن يجدوه عند رواة أثبات. يقول ابن سلام: وقد ذكر أبا سفيان بن الحارث أحد شعراء قريش الذين كانوا يناقضون حسان بن ثابت وشعراء المدينة: إن شعره في الجاهلية سقط ولم يصل إلينا منه إلا القليل ثم علق على ذلك بقوله: ولسنا نعد ما يروي ابن إسحاق له ولا لغيره شعرًا، ولأن لا يكون لهم شعر أحسن من أن يكون ذاك لهم؛ فهم كانوا يرفضون جملة ما يرويه ابن إسحاق وأشباهه من مثل عبيد بن شرية وينحونه عن طريقهم، يقول ابن سلام: وليس يشكل على أهل العلم زيادة الرواة ولا ما وضعوا ولا ما وضع المولدون" مما حمله رواة القصص والأخبار من شعر غث لا خير فيه ولا حجة في عربيته ولا أدب يستفاد ولا معنى يستخرج ولا مثل يضرب ولا مديح رائع ولا هجاء مقذع ولا فخر معجب ولا نسيب مستطرف.

ففي الشعر الجاهلي منتحل لا سبيل إلى قبوله، وفيه موثوق به، وهو على درجات منه ما أجمع عليه الرواة ومنه ما رواه ثقات لا شك في ثقتهم وأمانتهم من مثل المفضل والأصمعي وأبي عمرو بن العلاء. وقد يغلب المنتحل الموثوقَ به؛ ولكن ذلك لا يخرج بنا إلى إبطال الشعر الجاهلي عامة؛ وإنما يدفعنا إلى بحثه وتمحيصه مهتدين بما يقدم لنا الرواة الأثبات من أضواء تكشف الطريق.

وقد لفتت هذه القضية –قضية انتحال الشعر الجاهلي– أنظار الباحثين المحدثين من المستشرقين والعرب، وبدأ النظر فيها نولدكه[3] سنة ١٨٦٤ وتلاه آلوَرْد حين نشر دواوين الشعراء الستة الجاهليين: امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعلقمة وعنترة فتشكك في صحة الشعر الجاهلي عامة؛ منتهيًا إلى أن عددًا قليلًا من قصائد هؤلاء

الشعراء يمكن التسليم بصحته، مع ملاحظة أن شكًّا لا يزال يلازم هذه القصائد الصحيحة في ترتيب أبياتها وألفاظ كل منها.

وتابع كثير من المستشرقين الوارد في موقفه الحذر من قبول كل ما يروى للجاهليين، أمثال موير وباسيه وبروكلمان، وكان مرجليوث أكثر من أثاروا هذه القضية في كتاباته .

ولعل مرجوليوث **D.S.Margoliouth** هو من أوائل من آثار منهم الشك في الشعر الجاهلي في مقالة كاملة، خصص صفحاتها الكثيرة للحديث عن هذا الموضوع من جميع أطرافه .

فقد نشر في مجلة الجمعية . الملكية الآسيوية – عدد يوليو سنة ١٩٢٥- بحثًا عنوانه أصول الشعر العربي، رجح فيه أن هذا الشعر الذي نقرأه على أنه شعر جاهلي إنما نظم في العصور الإسلامية ثم نحله هؤلاء الواضعون المزيفون لشعراء جاهليين. وقد بنى رأيه هذا على ضربين رئيسيين من الأدلة : أدلة خارجية، وأدلة داخلية. وسنعرض في هذه الصفحات رأيه، في شيء من التفصيل.

الأدلة الخارجية:

١- بدأ مرجوليوث مقالته بالحديث عن وجود الشعر في الجاهلية؛ فقال : إن وجود شعراء في بلاد العرب قبل الإسلام أمر شهد به القرآن، إذ أن فيه سورة واحدة باسمهم، ثم يشير إليهم من حين إلى آخر في مواطن أخرى. ومن بين الأوصاف التي كان خصوم النبي ينعتونه بها أنه كان شاعرًا مجنونًا.

وكان النبي ينفي عن نفسه هذه الصفة ويجيبهم بأنه إنما "جاء بالحق". ووردت، في سورة أخرى، ثلاث ألفاظ هي كاهن، ومجنون، وشاعر، ويزعم مرجوليوث أن سياق

الآية يدل على أن هذه الألفاظ الثلاثة في معنى واحد "مترادفة"، ثم قال: إن الذين وصفوه بأنه شاعر قالوا إنهم سيتربصون ليروا ما سيحدث له! وهو يرى أنه يصح أن يستنتج من ذلك أن من عادة الشعراء آنئذ التنبوء بالغيب!! وأشار إلى أن القرآن قد ذكر أن لغته ليست لغة شاعر ولكنها لغة رسول كريم ، وأن الله لم يعلم النبي الشعر لأنه لا طائل له من ورائه ، وأن كلام النبي حقيقة مقررة وعظة واضحة ويستنتج من ذلك أن الشعر كان آنئذ غامضًا مبهمًا..!

ويشير إلى أن خلاصة صفات الشعراء مجموعة في السورة التي تحمل اسمهم. وفيها أنهم يتبعهم الغاوون، وأنهم في كل واد يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون. ويقول إن الآيات التي تلي هذه الأوصاف قد تبدو كأنما تستثنى بعض الشعراء الأتقياء من هذا الحكم، ولكن أسلوب القرآن يجعلنا في شك من أن المقصودين بهذا الاستثناء هم حقيقة الشعراء. ويذهب إلى أنه يجوز لنا أن نستنتج مما تقدم أن الشياطين كانت تتنزل على الشعراء.

إذ أن القرآن ذكر أنهم يتنزلون على كل كاذب أثيم، ،أنهم ينقلون إليه أنباء كاذبة في جملتها ويذكر أن هذه الآيات تشير إلى عمل الشياطين المذكور في سورة أخرى وهو: استراقهم السمع في المجالس السماوية، فعوقبوا على هذا الذنب بأن ألقيت عليهم الشهب، وهذا ثانية يصل بين الشعراء والتنبوء بالغيب!!

ثم يذهب إلى أنه إذا كان المقصود بالشعر هو هذا الشعر الذي عُرف في الأدب العربي بعد ذلك، فإننا نقع في حيرة من الأمر، وذلك أن محمدًا الذي لم يكن يعرف الشعر، كان يدرك أن ما يوحى إليه ليس بشعر، بينما كان أهل مكة –وهم لا شك يعرفون الشعر إذا ما سمعوه أو رأوه– يظنون كلامه شعرًا!

ويخلص مرجوليوث بعد هذا الحديث الطويل الذي لخصنا جملته، إلى أنه ربما كان ما تبيح لنا الشواهد القرآنية قوله هو أنه كان قبل الإسلام بعض الكهان من بين العرب كانوا يُعرفون باسم "الشعراء"، كانت لغتهم غامضة مبهمة كما هو الشأن دائمًا في الوحي .

٢- وبعد أن ينتهي مرجوليوث من حديثه عن الشعر والشعراء كما استنتجه من آيات القرآن الكريم، يبدأ في عرض آراء العلماء المسلمين القدماء ويسميهم **Archaelogists**. فيثير مشكلة ابتداء الشعر العربي ونشأته، ويقرر أنها أمر في الغاية من الغموض؛ إذ إن القدامى قد ذهبوا فيها مذاهب متباينة.

فقد عزا بعضهم شعرًا عربيًّا إلى آدم، بينما أورد آخرون قصائد غنائية عربية منذ عهد إسماعيل. ثم يقول إنه يبدو أن الرأي السائد أن الشعر العربي - بصورته التي ثبت عليها بعدُ - بدأ قبيل ظهور الإسلام بأجيال قليلة على أبعد تقدير.

ومع أن الذين يذهبون هذا المذهب يجعلون مهلهلًا أو امرأ القيس أول الشعراء فقد أوردوا شعرًا لشعراء سبقوهما بزمن طويل. ثم يختم حديثه هذا ختامًا يكشف عن شكه في كل ما أورد، وذلك قوله : ولو أننا عددنا القصة التي تعزو إلى مهلهل اختراع القصيدة حقيقة تاريخية، فلا بد لنا من أن نُقر بأنه أصبح له مقلدون وأتباع كثيرون، فبين أيدينا عدد وافر من المجلدات التي تشتمل على مجموع أشعار عدد كبير من الشعراء الذين عاشوا في الفترة التي امتدت بين اختراعه وهجرة الرسول!

وجميع شعراء المعلقات العشر المشهورين أصحاب دواوين أو مجموعات قصائد طُبع أكثرها وجاء في صفحات كثيرة.

وبجانب هؤلاء شعراء كثيرون يساوونهم في الإكثار ولم يُعدوا من العشرة الخالدين.وفضلًا عن ذلك فإن القصائد الصادرة عن شعراء من قبائل معينة قد

جُمعت في مجاميع، طُبع أحدها. وتدل هذه القصائد بطبيعتها على معرفة بالهجاء، وهي تشير في مواطن كثيرة إلى الكتابة، فلا شك إذن في أن عرب ما قبل الإسلام –الذين كانوا يستخدمون لغة القرآن! – كانوا مجتمعًا أدبيًّا عاليًا! ولا تكاد بلاد الإغريق القديمة تعرض علينا عددًا مثل هذا من عبدة آلهة الفن!.

٣– ثم ينتقل إلى الحديث عن حفظ هذا الشعر الجاهلي، فيقول: لو فرضنا أن هذا الشعر حقيقي، فكيف حفظ؟ لا بد أنه حفظ إما بالرواية الشفهية وإما بالكتابة ويبدو أن الرأي الأول "أي الرواية الشفهية" هو الرأي الذي يذهب إليه المؤلفون العرب، مع أنه ليس بالرأي الذي يجمعون عليه كما سنرى.

ثم يشك – كعادته – في أن يكون الشعر الجاهلي قد حُفظ بالرواية الشفهية، ويبنى شكه على ثلاثة أسباب، الأول: إذا كانت قصائد عدة ذات أبيات كثيرة قد حُفظت بالرواية الشفهية فلا يمكن أن يكون ذلك إلا إذا وجد أفراد عملهم أن يحفظوها في ذاكرتهم وينقلوها إلى غيرهم، وليس لدينا ما يدعونا إلى الظن بأن حرفةً مثل هذه قد وُجدت أو أنها بقيت خلال العقود الأولى من الإسلام!

والثاني: ما يذهب إليه المسلمون من أن الإسلام يجبُّ ما قبله وما ورد في القرآن من أن أتباع الشعراء هم الغاوون فحديث القرآن عنهم فيه قسوة عليهم واحتقار لهم. فثمة إذن سبب قوي يدعو إلى نسيان الشعر الجاهلي إذا كان ثمة شعر جاهلي حقيقة!

والثالث مرتبط بالثاني وهو أن الأعمال التي تخلدها عادة هذه القصائد كانت انتصارات القبائل بعضها على بعض، والإسلام، الذي كان يرمي إلى توحيد العرب ونجح نجاحًا كبيرًا في تحقيق تلك الوحدة، كان يحث على نسيان تلك الحوادث، والقصائد التي من هذا الضرب تثير النفوس وتهيج الدماء.

٤- حتى إذا اطمأن إلى أنه قد فند ما ذهب إليه أكثر القدامى من أن الشعر الجاهلي قد حفظ لنا بالرواية الشفهية، قال: فلم يبق إلا الاحتمال الثاني وهو: أن هذه القصائد حُفظت بالكتابة". ثم يعرض راويات قليلة تشير إلى أن بعض الشعر الجاهلي كان يُكتب، ويستنتج من ذلك أنه ربما لا يوجد ما يتعارض مع ما تصرح به هذه القصائد إذا تخيلنا أنها كانت تذيع وتنتشر عن طريق الكتابة . ولكنه لا يلبث أن يخضع لما يسيطر عيه من نزعة الشك فيحاول أن ينفي كتابة الشعر الجاهلي من وجهين، الأول: ما يصرح به القرآن نفسه، فإن وجود أدب فصيح قبل الإسلام بلغة القرآن وبالكتابة الحميرية، أو بأي خط آخر، لأمر يبدو مناقضًا كل التناقض لصريح ألفاظ القرآن ولأحكامه التي يقررها بحيث لا يصح أن يوضع هذا الأمر موضع النظر؛ فالقرآن يسأل أهل مكة: {أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُون} القلم: ٣٧.

ويسأل الكفار والمشركين: {أَمْ عِنْدَهُمْ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ} القلم: ٤٧ وأولئك الذي يخاطبهم القرآن لم ينزل على آبائهم نذير: {لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ}. يس: ٦.

و{أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ} السجدة: ٣.

{وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}. القصص: ٤٦.

ولم يكن لأحد كتب سماوية إلا لمجتمعين: المجتمع المسيحي والمجتمع اليهودي: {وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ، أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ} الأنعام: ١٥٦.

ولم يكن للوثنيين كتاب من هذا الضرب. وهذا أمر من الصعب أن نفترض أن القرآن أخطأ فيه، فإن رسولًا إلى الهندوس قد يحكم على كتبهم بأنها لا قيمة لها وأنها مضللة، ولكنه لا ينكر وجودها. ولو أن الشعر الجاهلي كان مكتوبًا لكان للجاهليين كثير من الكتب "وهي كتب في الحقيقة موحى بها ، قد تكون غير مشذبة أو مصقولة – مع أنها لم تكن جميعًا كذلك كما سنرى– ولكنها مع ذلك كافية لأن تجيب عن أسئلة القرآن بالإثبات؛ ولكن القرآن، لا شك، يزعم أن الجواب بالنفي .

أما الوجه الثاني فهو ما يدعوه "مجرى التطور الأدبي"، وهو، في حديثه هذا، يجمجم في ألفاظه ولا يكاد يبين، ومع ذلك فإن الهدف الذي يرمي إليه واضح، فهو يذهب إلى أن الأدب في تطوره يسير عادة، وربما دائمًا، من الصور الشاذة غير المنتظمة إلى الصور المألوفة المنتظمة.

ومن هنا يرى أن الشعر الذي يزعم أنه جاهلي إنما هو مرحلة تالية للقرآن لا سابقة عليه، وذلك قوله : "إن الأساليب الأدبية العربية، سواء النثر المسجوع والشعر، فيها مشابه من أسلوب القرآن. وفي القرآن آيات لا ينكر أنها نثر مسجوع إلا الغلاة من المتشددين؛ وفيه أيضًا، في مواطن متعددة، أمثلة على كثير من الأوزان الشعرية. والتطور من الأسلوب القرآني إلى الأسلوب المنتظم Regular يبدو متمشيًا مع المألوف.

وإذا كان القرآن أول أثر في اللغة يظهر فيه الفن الأدبي فإن ما يدعيه لنفسه من الإعجاز في الفصاحة أمر من اليسير على الناس فهمه، وهو لا يختلف بذلك كثيرًا عما يدعيه لأنفسهم أولئك الذين أدخلوا، لأول مرة، النظم في اللغة أو ينسبه إليهم الآخرون. أما إذا كان المستمعون قد تعودوا سماع النثر المسجوع والشعر الكامل

المصقول كما يبدوان في أساليب الآثار الأدبية التي تدل في ظاهرها على أنها جاهلية، فإن من العسير إقامة الدليل على هذا الادعاء .

٥- ثم يتطرق بعد ذلك إلى الحديث عن الرواة من علماء القرنين الثاني والثالث الهجريين، فيذكر حمادًا، وجنادًا، وخلفًا الأحمر، وأبا عمرو بن العلاء، والأصمعي، وأبا عمرو الشيباني، وابن إسحاق صاحب السيرة، والمبرد، فيجمع بعض ما انتثر في الكتب العربية من إشارات تُشيع الشك في بعض ما جمعوا أو أوردوا من الشعر الجاهلي، ثم أضاف إلى ذلك آراء هؤلاء الرواة العلماء بعضهم في بعض، فقال: "إن هؤلاء العلماء لم يكن يوثق بعضهم بعضًا، فابن الأعرابي كان يتهم الأصمعي وأبا عبيدة، وربما بادلوه اتهامًا باتهام، ولا شك في أن كلًّا منهم كان يتهم الآخر .

وقد ختم حديثه عن هذه النقطة بقوله: وقد نقبل أن بعض العلماء كانوا يشكون، بل كانوا ينقدون، فلم يضعوا ولم ينحلوا، وأدخلوا في مجموعاتهم ما كانوا يعتقدون أنه حقيقة شعر قديم، ولكن هذا يعود بنا إلى التساؤل عن مصادرهم.

فقد كانت رسالة محمد حدثًا عظيمًا في بلاد العرب: كانت انفصالًا عن الماضي يندر مثيله في التاريخ. فقد ترك الناس، من جميع أنحاء شبه الجزيرة، مساكنهم ليستوطنوا في بلاد لم يكن إلا القليل منهم يسمع بها. وقد واكبت الإسلام وتلته حروب أهلية في داخل شبه الجزيرة.

ولم يكن الإسلام متسامحًا مع الوثنية القديمة حتى ولا تسامح استصغارًا لشأنها، بل كان يناصبها أشد العداء، ولم يقبل أن يلتقي معها في مكان سوى. فإذا كان الشعراء هم لسان الوثنية الناطق، فمن هم أولئك الذين حفظوا في صدورهم، ثم نقلوا إلى غيرهم، تلك الأشعار التي تنتسب إلى نظام أبطله الإسلام؟

ونستطيع أن نتتبع الشعور بهذه الصعوبة في ذلك الحل الذي يقال إن حمادًا قدمه، وهو أن الأشعار كانت مدفونة حينما كانت الحماسة للإسلام في أشدها، ثم اكتشفت مصادفة حينما بردت تلك الحماسة بعض الشيء .

ولكن مرجوليوث لا يطمئن إلى ما انتهى إليه: فلا يكاد يتم حديثه السابق حتى يعقب عليه بقوله إن هؤلاء الشعراء لم يكونوا كما يبدو عليهم لسان الوثنية الناطق، بل كانوا مسلمين في كل شيء ما عدا الاسم ومن أجل أن يبرهن على حكمه هذا ينتقل إلى الضرب الثاني من الأدلة التي يرى أنها كفيلة بإشاعة الشك في صحة الشعر الجاهلي، وهي الأدلة الداخلية:

١- وأول هذه الأدلة الداخلية - كما يراها مرجوليوث - هو ما في هذا الشعر الجاهلي من إشارات إلى قصص ديني ورد في القرآن، وما فيه من كلمات دينية إسلامية مثل: الحياة الدنيا، ويوم القيامة، والحساب، وبعض صفات الله.

وقد بدأ مرجوليوث حديثه عن هذا الدليل بقوله : إن الشعراء، من جميع الأمم، لا يتركون الناس بعدهم يشكون في أمر ديانتهم، والعرب في نقوشهم واضحون صريحون كذلك في هذا الموضوع، فإن أكثر هذه النقوش تذكر إلهًا أو آلهة وأمورًا تتصل بعبادتها.. ولكن الإشارات إلى الدين في الأشعار التي بين أيدينا قليلة ... ولا نجد من الشعر جو الآلهة المتعددة الذي نجده في النقوش.

وربما كان هذا الذي أوحى للأب شيخو نظريته في أنهم كانوا جميعًا نصارى، ولكن يبدو أن هذه النظرية غير صحيحة، فإن بعض هؤلاء الذين افترض أنهم نصارى عبروا عن أنفسهم بطريقة تظهر في وضوح أنهم ينتسبون إلى مجتمع آخر مختلف.

فأعشى قيس، وهو مذكور في كتاب شيخو، يتحدث عن المصلين أو العباد متحلقين حول باب حاميهم مشبهًا تحلقهم بتحلق النصارى حول بيت صنهمهم، وأحد الأمثلة القليلة التي نجد فيها قسمًا بآلهة وثنية نجده في بيت منسوب إليه.

ثم يمضي مرجوليوث في حديثه فيقول: وحيثما يكن النصارى تكن لهم كتبهم المقدسة، وتتأثر لغتهم وأفكارهم تأثرًا كبيرًا بتعبيرات الأناجيل ورسائل الحواريين والأناشيد، ويتخذ شعرهم في الغالب طابع الترانيم ولكن في الشعر –الذي يفترض أنه شعر جاهلي– ندرة كبيرة في الإشارات إلى الكتاب المقدس وتعاليم المسيحية حتى لدى الشعراء الذين ازدهروا في بلاط مسيحي.

وبالرغم من أن الشعراء الجاهليين يقسمون كثيرًا، فهم لا يكادون يختلفون في قسمهم بالله، وهو قسم شائع حقًا في دواوينهم، حتى إن عبيد بن الأبرص الجاهلي يقسم بلغة القرآن وذلك قوله :

حلفت بالله إن الله ذو نعم   لمن يشاء وذو عفوٍ وتصفاح

وفكرتهم عن أعمال الله لا يستنكرها موحد، فهي قد سبقت في التعبير عما يعبر عنه القرآن في كل التفصيلات على وجه التقريب". ثم يمضي مرجوليوث يضرب لنا الأمثلة على ذلك، فيمثل، ببيت ذي الإصبع العدواني الذي يصف فيه الله بأنه الذي يقبض الدنيا ويبسطها ، ويمثل ببيت جليلة بنت مرة على أن النساء كن يلجأن إلى الله إذا حزبهن أمر كالثكل، وهو قولها:

إننـــي قاتلـــة مقتولـــة   ولعـــل الله أن يرتـــاح لـــي

ويتمثل كذلك ببيت عبيد بن الأبرص:

مـــن يســـأل النـــاس يحرمـــوه   وســـــــائل الله لا يخيـــــــب

ويشير إلى أنهم كانوا يخشون ما يغضب الله من الذنوب، ويتمثل ببيت امرئ القيس:

فـــاليوم أشـــرب غيـــر مســـتحقب   إثمًـــــا مـــــن الله ولا واغــــل

ويذكر أنهم كانوا يصفون الله بأنه ذو الأمر المقضي، ويشير إلى بيت الحارث بن حلزة:

فهـــداهم بالأســـودين وأمـــر الـــ   ـــله بلـــغ تشـــقى بـــه الأشـــقياء

ثم يستنتج من ذلك أن الديانة الوحيدة التي يصح أن يعتنقها هؤلاء الشعراء الجاهليون هي الإسلام".

ويقول إن هؤلاء الشعراء لم يكونوا موحدين متمسكين بالوحدانة حسب، بل إنهم ليكشفون عن معرفتهم بأمور يذكر القرآن أنها لم يكن يعرفها العرب قبل نزول الوحي. ففي سورة رقم ١١ آية ٥١ يذكر أنه لا محمد ولا قومه سمعوا من قبل بقصة نوح ، وهذا القول متفق مع ما نستنبطه من النقوش التي لا تشير إلى السلالات العربية الواردة في التوراة والتي تشير إليها هذه القصة .

ثم يشير إلى أن النابغة كان يعرف هذه القصة بتفصيلاتها، ويعقب على ذلك بقوله: ويبدو أن القرآن هو المصدر الوحيد عن هذا الأمر ، ويورد بيت النابغة:

فألفيـــت الأمانـــة لـــم تخنهـــا   كـــذلك كـــان نـــوح لا يخـــون

ويقول: "وهنا إشارة واضحة إلى الصفة "أمين"، وهي في القرآن من صفات نوح .ثم يتحدث عن الألفاظ الإسلامية في شعر عنترة فيقول : وواضح أن عنترة العبسي كان يعرف وحي القرآن ومصطلحات الإسلام". وذلك لأنه استخدم ألفاظ " قبلة القصاد" والركوع والسجود" و"حجر المقام" و"الجحيم" و"المحشر" وغيرها، ولذلك قال عنه إنه "لا داعي للشك في أنه كان مسلمًا تقيًّا صالحًا، غير أن حياته انتهت قبل الإسلام !! .

ثم ينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن لفظة "الدنيا" فيقرر أن القرآن أول من استعمل لفظ "الدنيا" للدلالة على الحياة أو هذا العالم، ثم يقول: غير أن الشعراء الجاهليين كانوا على معرفة تامة بهذا التعبير . وهنا يمثل بقول عبيد بن الأبرص "طيبات الدنيا"، وقول ذي الإصبع "عرض الدنيا".

وبعد أن يفيض في تفصيل القول وضرب الأمثلة ينتهي إلى قوله : من المحتمل جدًّا أن نتصور أن محمدًا كان له "سابقون" بمعنى أن بعض الأفراد ثاروا قبل عهده على عبادة الأوثان في وسط بلاد العرب؛ ومن الواضح، فضلًا عن ذلك، أن النصرانية سيطرت على أجزاء من شبه الجزيرة.

ولو أن الشعراء الجاهليين نظموا كما ينظم النصاري مضمنين المبادئ المسيحية مظهرين معرفتهم بتعاليمها لكان من الجائز أن تواجهنا بعض الصعوبات في قصائدهم وتعترضنا مشكلة نقلها وحملها، أما ديانتهم وحدها فلن تكون حينئذٍ من بين هذه الصعوبات.

ولكن حينما نجدهم يتحدثون كالمسلمين، متشددين في توحيدهم كما صار أصحاب النبي بعد ذلك، وحينما كانوا يرددون صدى أي كتاب مقدس كان هذا الكتاب هو القرآن فإنه من الصعب أن نقبل صحة هذه القصائد، إذ لماذا كان للعرب، الممثلين

في النقوش، آلهتهم المحلية المتعددة، بينما لم يكن يعرف شعراء البلاد نفسها إلهًا غير الإله الذي دعا محمد إلى توحيده؟

وحتى لو أننا افترضنا أن النقوش قد صدرت عن مجتمعات تختلف عن مجتمعات الشعراء، فماذا يحدث لرسالة محمد إذا كان الناس الذين "أنذرهم" يعتقدون بإله واحد وينتظرون يوم البعث؟

ولو أننا اتبعنا النقوش فلا بد من الاعتراف بأن جدل القرآن قد كان في موطنه الصحيح الحق، وربما كانت مناسك عبادة المكيين وجيرانهم تختلف عن مناسك عبادة الجهات التي فيها النقوش، ولكنها كانت مشابهة لها إذ أنها من أسرة واحدة. ولكن آراء الشعراء الجاهليين في الموضوعات الدينية تبدو مشابهة، بل مماثلة، لتلك التي يعلمنا إياها القرآن .

٢- والدليل الثاني من الأدلة الداخلية هو: اللغة. ومدار حديثه في هذا الدليل على أمرين: الاختلاف بين لهجات القبائل المتعددة، والاختلاف بين لغة القبائل الشمالية جملة واللغة الحميرية في الجنوب وهو يذكر أن هذا الاختلاف بنوعيه واضح فيما اكتشف من نقوش في شمال شبه الجزيرة وفي جنوبيها.

غير أن هذا الشعر الجاهلي كله كما يشير مرجوليوث بلغة القرآن، بالرغم من استخدام كلمة أو صيغة في مواطن متفرقة من هذا الشعر يقال عنها إنها لهجة قبيلة بذاتها أو لهجة إقليم. ولو أننا افترضنا أن أثر الإسلام في قبائل بلاد العرب وحد لغتهم ... فإنه من الصعب أن نتصور أنه كانت ثمة لغة مشتركة – تختلف عن لغات النقوش– منتشرة في أنحاء شبه الجزيرة كلها قبل أن يهيئ الإسلام هذا العنصر الموحد .

وليس بين أيدينا أي دليل على أنه كان في جنوب بلاد العرب شعراء، ومع ذلك فإذا كان ثمة شعراء فلا بد أنهم نظموا بإحدى اللهجات العربية الجنوبية .

ولقد اكتشف حقًّا نقش أو نقشان في شمال بلاد العرب بلغة القرآن، ولكن نقوشًا أخرى كشفت عن ثروة من اللهجات تماثل اللهجات التي وجدت في الجنوب، وهنا أيضًا لا وجود للشعر فيما نعلمه ليومنا هذا ... وحينما صنع العلماء الأقدمون مجموعاتهم كانت لغة القرآن بفضل الإسلام قد صارت اللغة الفصحى في جنوب بلاد العرب، وهذا نفسه جعلها تسود في أجزاء أخرى من شبه الجزيرة. وليس لدينا حتى الآن ما يجعلنا نفترض أنها كانت لغة أدبية في أي مكان قبل القرآن.

ولو أننا نبحث في وثائق نثرية فلربما اطمأننا إلى أحد افتراضين: إما أنها تُرجمت، وإما أنها، على الأقل، نُقلت من طور لغوي إلى طور آخر؛ وذلك يشبه، شبهًا ما، التغير في هجاء الكلمة الذي يحدث تدريجيًّا في الآثار المطبوعة، متفقة مع أحدث استعمال، من غير أن يكون ذلك عن سوء قصد. ولكن هذا التغير مستحيل في الشعر إذ أن فيه من الصنعة المعقدة أكثر مما في أي أسلوب آخر معروف .

ثم ينتهي من حديثه هذا بأن يربط بين هذا الدليل والدليل الذي سبقه فيقول :

وكما أن وجود الأفكار الإسلامية في الآثار المقطوع بجاهليتها دليل على وضعها وزيفها، فإن استخدام لهجة، جعلها القرآن لغة فصحى، أمر يدعونا إلى أن نشك فيها طويلًا .

ويبدو أن المسلمين الذين جمعوا قصائد من جميع أنحاء شبه الجزيرة بلغة واحدة، كان عملهم هذا متمشيًا مع عملهم في جعل كثير من هؤلاء الشعراء، بل أكثرهم، يعبدون الله ولا يشركون به: إنهم يسحبون على الماضي ظواهر هم أنفسهم يعرفونها .

٣- وأما الدليل الآخر من الأدلة الداخلية فقائم في موضوعات القصائد نفسها، وحديثه عن هذه النقطة يلفُّه الغموض والإبهام، ولعله يريد أن يستنتج منه أن اتفاق القصائد الجاهلية في التطرق لموضوعات واحدة بعينها تتكرر في كل قصيدة أمر يدل على أنها نظمت بعد نزول القرآن لا قبله، وذلك قوله : فإذا كانوا يبدءون دائمًا قصائدهم بأبيات في النسيب لأن القرآن يقول إن الشعراء في كل واد يهيمون، وإذا كانوا يصفون أسفارهم وتجوالهم لأن القرآن يقول إنهم يتبعهم الغاوون وهذا يتضمن يقينًا أنهم أنفسهم ضالون غاوون.

وإذا كانوا يذيعون وينشرون أعمالهم، وغالبًا ما تكون مخالفة للأخلاق لأن القرآن يقول إنهم يقولون ما لا يفعلون فإننا نستطيع على الأقل أن نقتفي هذه الرتابة إلى مصدرها. ولكن إذا كان هذا الشكر الثابت المقرر أقدم من القرآن فلا بد أنه يرجع إلى نماذج معينة معترف بها، والبحث عن هذه النماذج ينتهي بنا إلى آدم! .

وبعد أن يُخيل إليه أنه استوفى أدلته يعود إلى مناقشة الأمر مناقشة كلية فيقول : وإذن إذا كان الشعر -الظاهر أنه جاهلي- مشكوكًا فيه بكلا الدليلين الخارجي والداخلي، فإننا نعود إلى مشكلة ابتداء النظم العربي، وهل هو قديم جدًّا ... أو هل نُظم جميعه بعد الإسلام فهو بهذا متطور عن الأساليب التي وُجدت في القرآن؟

ويبدو هذا السؤال في الغاية من الصعوبة. إذ أنه يبدو - من جهة - أن الأمر مستمر متصل: فالشعراء الأمويون يلون شعراء عصر النبي والصحابة، وهؤلاء يتبعون الشعراء الجاهليين ... ولذلك فإن افتراض أن العرب نظموا الشعر افتراض مُغرٍ، إلا أننا لا نستطيع أن نطمئن إلى أن بين أيدينا حقًّا شعرًا من قبل الإسلام.

بينما نجد من جهة أخرى - فضلًا عن فقدان الشعر في النقوش- أن القرآن لم يشر إلى الموسيقى ... فإذا كانت الموسيقى من مستحدثات العصر الأموي فهل نستطيع

أن نتصور أن الوزن الشعري قد وُجد عند العرب من قبلُ بهذا الانتظام وبهذه الغزارة ؟

إن التسلسل المعتاد لنشأة هذه الأشياء هو: الرقص ثم الموسيقى ثم الشعر ... ثم يقول : لقد كانت الممالك الجاهلية التي نعرفها عن طريق النقوش ذات حضارة باسقة، ولكن لا يبدو أنه كان لها شعر، فهل نصدق أن الأعراب غير المتحضرين كان لهم شعر في مثل هذه الصور المركبة كما يصدق بذلك العلماء الأقدمون من المسلمين؟

ويقول: وبوجه عام فإن من المرجح احتمال صواب ما افترضناه وهو: أن كلًّا من الشعر والنثر المسجوع كانا في معظمهما مشتقين من القرآن، وأن تلك الجهود الأدبية التي سبقت القرآن كانت أقل فنًّا منه لا أكثر فنًّا .

ثم يختم مرجوليوث مقالته هذه بقوله : وإذا كان يبدو من الحكمة ألا نطلق حكمًا على مشكلة النظم العربي وهل يرجع إلى عهد قديم جدًّا أو هل هو حادث بعد القرآن فإن سبب ذلك تلك الصفات المحيرة التي نجدها فيما بين أيدينا من أدلة.

ونحن في أمان حينما نبحث في النقوش، ويصح أن يوثق بالقرآن في بيان حالة العرب الذي أنزل لهم في زمن النبي، أما في تاريخ الشعر العربي فلا بد لنا من الرجوع إلى مصادر أخرى، وهي – في أغلبها– تبحث في أزمنة وأحوال لا عهد لمؤلفيها أنفسهم بها وكانت تجاربهم وخبرتهم تقودهم إلى تصديق أمور كثيرة ضللتهم بالضرورة. ونحن –حينما نحاكم أقوالهم ونبحث فيها– نستطيع أن نذهب في الشك إلى أقصى حدوده، كما نستطيع أن نمضي في التصديق إلى أبعد مذاهبه !

ثم تعاور نفر من المستشرقين الحديث عن "صحة الشعر الجاهلي" وكان أكثرهم يرد، فيما يكتب، ما ذهب إليه مرجوليوث، ويفند أدلته وافتراضاته وكان أولهم، فيما نعرف،

الأستاذ شارلس جيمس ليال Charles James Lyall الذي أشار في المقدمة التي صدر بها الجزء الثاني من "المفضليات" سنة ١٩١٨م، إلى ما جاء به مرجوليوث في مقاله المنشور في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية عدد سنة ١٩١٦ ص٣٩٧، وإلى ما أورده في "معلمة الدين والأخلاق" من حديثه عن "محمد" وما أورده كذلك في الصفحة الستين من كتابه "محمد" سنة ١٩٠٥.

بدأ ليال حديثه عن "صحة الشعر الجاهلي" بأن أورد ما ينسب إلى المفضل من تجريح حماد الراوية وذلك قوله : قد سلط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده فلا يصلح أبدًا. فقيل له: وكيف ذلك؟ أيخطئ في روايته أم يلحن؟

قال: ليته كان كذلك، فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب، لا، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله في شعره، ويُحمل ذلك عنه في الآفاق، فتختلط أشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد وأين ذلك! ".

يقول ليال إن بين ناقل هذا الخبر – وهو أبو الفرج الأصفهاني– وصاحب الحديث – وهو المفضل الضبي– ثلاثة رواة في سند الخبر هم: محمد بن خلف وكيع عن أحمد بن الحارث الخراز عن ابن الأعرابي.

فربما زاد هؤلاء أو أحدهم على هذا الحديث شيئًا مما يزيده الرواة، غير أننا لو قبلنا أن هذا الحديث قد قاله المفضل حقًّا وسلمنا بذلك، فلا بد لنا من أن نذكر أن حمادًا كان معاصرًا للمفضل وأنه ربما كان أصغر منه سنًّا، وأن المفضل كان من أعلم الناس بالشعر وأقدرهم على تمييز صحيحه من منحوله، وأن الرواة من العرب –وهم الذين يُزعَم أن حمادًا قد أفسد ما أخذ عنهم من الشعر– كانوا، من قبل أن يفسد

حماد روايتهم، قادرين على أن يفتحوا خزائن الشعر الذي يحفظونه ويروونه بين يدي المفضل.

ولو أننا سلمنا بصحة ما ذكره هذا الخبر من أمر الوضع والنحل، فإن ذلك ينتهي إلى أن ما زاده حماد كان يشبه لغة الشاعر الحقيقي الأصيل وإحساسه وعاطفته شبهًا يستحيل معه التمييز بينه وبين شعر الشاعر الأصيل.

آراء العرب المحدثين:

ما أول من شق طريق البحث في هذا الموضوع من العرب المحدثين فهو الأستاذ مصطفى صادق الرافعي في كتابه " تاريخ آداب العرب" الذي صدر في سنة ١٩١١م.

وقد خص الرواية والرواة بباب كامل من الجزء الأول نيفت صفحاته على مائة وخمسين ، حشد فيه من المادة ما لم يجتمع مثله – من قبله ولا من بعده حتى يومنا هذا– في صعيد واحد من كتاب. لَمَّ فيه شتات الموضوع من أطرافه كلها، واستقصاه استقصاء، غير أنه في كل ذلك كان يحكي ما أورده المؤلفون القدماء: يجمع ما تفرق من هذا الحديث في الكتب الكثيرة أو في مواطن شتى من الكتاب الواحد، ثم يرتب ما تجمع له في فصول ينتظم كل فصل منها عنوان يدل عليه.

ولكنه، على هذا الجهد العظيم الذي تكلفه، اكتفى، في أكثر حديثه، بالسرد المجرد والحكاية عمن مضى. ولم يتجاوز ذلك إلى البحث في هذه الأخبار والروايات بحثًا علميًا ولا إلى نقدها نقدًا يميز زائفها من صحيحها إلا في القليل النادر، وحتى في هذا القليل النادر كان يتعجل المضي، فلا يكاد يقف عند خبر أو رواية حتى يدعها وينتقل إلى غيرها.

ومع ذلك فللرافعي فضل السبق وفضل الاستقصاء في الجمع. وسنقف عند حديثه عن "وضع الشعر" وقفة نُلم فيها بما بينه من "البواعث على وضع الشعر في الإسلام" وسنحاول أن نرتبها هنا في نسق، وكان قد أرسلها في كتابه إرسالًا :

١- تكثر القبائل لتعتاض مما فقدته بعد أن راجعت الرواية، وخاصة القبائل التي قلت وقائعها وأشعارها، وكانت أولاها قبيلة قريش، فقد وضعت على حسان أشعارًا كثيرة على نحو ما ذكره ابن سلام في طبقاته وأوردناه في الفصل الثاني من هذا الباب.

٢- شعر الشواهد : وهو النوع الذي يدخل فيه أكثر الموضوع، لحاجة العلماء إلى الشواهد في تفسير الغريب ومسائل النحو ... وشعر الشواهد في اصطلاح الرواة على ضربين: شواهد القرآن وشواهد النحو .

والكوفيون أكثر الناس وضعًا للأشعار التي يستشهد بها؛ لضعف مذاهبهم وتعلقهم على الشواذ واعتبارهم منها أصولًا يقاس عليها ... قال الأندلسي في شرح المفصل: والكوفيون لو سمعوا بيتًا واحدًا فيه جواز شيء مخالف للأصول جعلوه أصلًا وبوبوا عليه، بخلاف البصريين ... ولهذا وأشباهه اضطر الكوفيون إلى الوضع فيما لا يصيبون له شاهدًا إذا كانت العرب على خلافهم .

٣- الشواهد التي كان بعض المعتزلة والمتكلمين يولدونها للاستشهاد بها على مذاهبهم وقد أورد ما ذكره ابن قتيبة في "التأويل" من أنهم ذهبوا إلى أن معنى كرسي في قوله تعالى: {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْض} هو العلم، وجاءوا على ذلك بشاهد لا يعرف، وهو قول الشاعر: ولا يكرسئ علم الله مخلوق. وأورد كذلك ما ذكره الجاحظ في "الحيوان" من أنهم كانوا يدفعون أن الرجوم كانت حجة للنبي صلى الله عليه وسلم، واحتجوا على ذلك بأبيات وضعوها على شعراء الجاهلية.

٤- الشواهد على الأخبار: فلما كثر القصاصون وأهل الأخبار اضطروا من أجل ذلك أن يصنعوا الشعر لما يلفقونه من الأساطير حتى يلائموا بين رقعتي الكلام، وليحدروا تلك الأساطير من أقرب الطرق إلى أفئدة العوام، فوضعوا من الشعر على آدم فمن دونه من الأنبياء وأولادهم وأقوامهم، وأول من أفرط في ذلك محمد بن إسحاق .. ثم ذكر أن مما يدخل في هذا الباب شعر الجن وأخبارها .

٥- الاتساع في الرواية : وهو سبب من أسباب الوضع، يقصد به فحول الرواة أن يتسعوا في روايتهم فيستأثروا بما لا يحسن غيرهم من أبوابها؛ ولذا يضعون على فحول الشعراء قصائد لم يقولوها، ويزيدون في قصائدهم التي تعرف لهم، ويدخلون من شعر الرجل في شعر غيره ... ثم يمثل على ذلك بحماد الراوية وخلف الأحمر.

وهكذا نرى أن الرافعي قد دار مع القدماء من العرب في فلكهم، وسرد ما رواه من أخبار، وما انبث في كتبهم من أحاديث، وحصر الموضوع في الدائرة نفسها التي حصره فيها القدماء: لم يحمل نصًّا أكثر مما يحتمل، ولم يعتسف الطريق اعتسافًا إلى الاستنتاج والاستنباط ولا إلى الظن والافتراض، ولم يجعل من الخبر الواحد قاعدةً عامة، ولا من الحالات الفردية نظرية شاملة.

ثم استقر الموضوع بين يدي الدكتور طه حسين، فخلق منه شيئًا جديدًا، لم يعرفه القدماء، ولم يقتحم السبيل إليه العرب المحدثون من قبله، ثم أنكره بعدُ كثير من المحدثين إنكارًا خصبًا يتمثل في هذه الكتب التي ألفوها للرد عليه ونقض كتابه. وقد استقى الدكتور طه حسين أكثر مادته -حيث يستشهد ويتمثل بالأخبار والروايات- من العرب القدماء.

وسلك بها سبيل مرجوليوث في الاستنباط والاستنتاج، والتوسع في دلالات الروايات والأخبار، وتعميم الحكم الفردي الخاص واتخاذه قاعدة عامة، ثم صاغ تلك المادة

وهذه الطريقة بإطار من أسلوبه الفني وبيانه الأخاذ، حتى انتهى إلى ما انتهى إليه من "أن الكثرة المطلقة مما نسميه أدبًا جاهليًّا ليست من الجاهلية في شيء، وإنما هي منحولة بعد ظهور الإسلام، فهي إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين .

وإن هذا الشعر الذي ينسب إلى امرئ القيس أو إلى الأعشى أو إلى غيرهما من الشعراء الجاهليين لا يمكن من الوجهة اللغوية والفنية أن يكون لهؤلاء الشعراء، ولا أن يكون قد قيل وأذيع قبل أن يظهر القرآن . ثم يكاد يعتدل بعض الشيء فيقسم الشعر الجاهلي ثلاثة أضرب ويقول : إنا نرفض شعر اليمن في الجاهلية، ونكاد نرفض شعر ربيعة أيضًا .

وأقل ما توجبه علينا الأمانة العلمية أن نقف من الشعر المضري الجاهلي، لا نقول موقف الرفض أو الإنكار، وإنما نقول موقف الشك والاحتياط .

فنحن إذن بإزاء نظرية عامة : لم نرها فيما عرضنا من آراء العرب القدماء، ونحسب أنها لم تدر لهم ببال، ولكننا رأيناها واضحة المعالم فيما عرضنا من آراء مرجوليوث، ولم يكتف بالإشارة عابرة، وإنما نص عليها نصًّا صريحًا في عبارات متكررة تختلف ألفاظها وتتفق مراميها.

وجاء الدكتور طه حسين فلم يقنع كما قنع مرجوليوث بأن يدلنا عليها في مقالة أو مقالتين، وإنما فصل لنا القول فيها في كتاب كامل قائم بذاته، وساقها في أسلوبه الأخاذ الذي يلف القارئ به لفًّا حتى يكاد أن ينسيه نفسه ويصرفه عن مناقشة رأيه ومن آيات ذلك أننا حينما قرأنا تلخيصنا لرأي الدكتور – بعد أن جردناه من أسلوبه – أحسسنا فرقَ ما بين الملخص والكتاب، وأدركنا أن هذا التلخيص يغمط الكتاب حقه، ويفقده كثيرًا من أثره في النفس.

وحديث الدكتور طه، في هذا، ينقسم ثلاثة أقسام، الأولان منها عامان، أولهما: الدوافع التي دفعته إلى الشك في هذا الشعر، وثانيهما: الأسباب التي يرى أنها أدت إلى نحل الشعر الجاهلي ووضعه. أما القسم الثالث فخاصٌّ يتحدث فيه عن شعراء بذاتهم.

دوافع شكه:

نظر الدكتور طه في هذا الشعر الذي يسمى جاهليًّا فرأى فيه أشياء رابته، فشك فيه، وانتهى إلى أن كثرته المطلقة ليست جاهلية وإنما هي منحولة بعد ظهور الإسلام.

ومن هذه الأمور التي رابته:

١- أنه لا يمثل الحياة الدينية والعقلية والسياسية والاقتصادية للعرب الجاهليين وقد فصل القول في كل جانب من هذه الجوانب :

أ- الحياة الدينية : فرأى أن هذا الشعر الذي يضاف إلى الجاهليين يظهر لنا حياة غامضة جافة بريئة أو كالبريئة من الشعور الديني القوي والعاطفة الدينية المتسلطة على النفس والمسيطرة على الحياة العملية. وإلا فأين تجد شيئًا من هذا في شعر امرئ القيس أو طرفة أو عنترة؟ أو ليس عجيبًا أن يعجز الشعر الجاهلي كله عن تصوير الحياة الدينية للجاهليين؛ وأما القرآن فيمثل لنا حياة دينية قوية تدعو أهلها إلى أن يجادلوا عنها ما وسعهم الجدال.

فإذا رأوا أنه قد أصبح قليل الغناء لجئوا إلى الكيد ثم إلى الاضطهاد ؟ ثم إلى إعلان الحرب التي لا تبقي ولا تذر. أفتظن أن قريشًا كانت تكيد لأبنائها وتضطهدهم وتذيقهم ألوان العذاب ثم تخرجهم من ديارهم ثم تنصب لهم الحرب وتضحي في

سبيلها بثروتها وقوتها وحياتها لو لم يكن لها من الدين إلا ما يمثله هذا الشعر الذي يضاف إلى الجاهليين؟ كلا .

ب- الحياة العقلية: ثم يجد في هذا الجدال الديني ما يجعله ينتقل إلى الحياة العقلية والحضارية، فيقول : أفتظن قومًا يجادلون في هذه الأشياء جدالًا يصفه القرآن بالقوة ويشهد لأصحابه بالمهارة، أفتظن هؤلاء القوم من الجهل والغباوة والغلظة والخشونة بحيث يمثلهم لنا هذا الشعر الذي يضاف إلى الجاهليين؟ كلا! لم يكونوا جهالًا ولا أغبياء، ولا غلاظًا ولا أصحاب حياة خشنة جافية، وإنما كانوا أصحاب علم وذكاء، وأصحاب عواطف رقيقة وعيش فيه لين ونعمة .

ج- الحياة السياسية : ثم يرى أن العرب كانوا على اتصال بمن حولهم من الأمم، بل كانوا على اتصال قوي، قسمهم أحزابًا وفرقهم شيعًا. أليس القرآن يحدثنا عن الروم وما كان بينهم وبين الفرس من حرب انقسمت فيها العرب إلى حزبين مختلفين: حزب يشايع أولئك وحزب يناصر هؤلاء؟ أليس في القرآن سورة تسمى "سورة الروم" ؟

لم يكن العرب إذن كما يظن أصحاب هذا الشعر الجاهلي معتزلين. فأنت ترى أن القرآن يصف عنايتهم بسياسة الفرس والروم. وهو يصف اتصالهم الاقتصادي بغيرهم من الأمم في السورة المعروفة: {لإِيلافِ قُرَيْشٍ، إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ} وكانت إحدى هاتين الرحلتين إلى الشام حيث الروم، والأخرى إلى اليمن حيث الحبشة والفرس .

د- الحياة الاقتصادية : ثم يقول الدكتور طه : فأنت تستطيع أن تقرأ امرأ القيس كله وغير امرئ القيس، وأنت تستطيع أن تقرأ هذا الأدب الجاهلي كله دون أن تظفر بشيء ذي غناء يمثل لك حياة العرب الاقتصادية فيما بينهم وبين أنفسهم .

ثم يتحدث عما في القرآن من إشارات إلى الحياة الاقتصادية لدى عرب الجاهلية فيقول : وأنت إذا قرأت القرآن رأيت أنه يقسم العرب إلى فريقين آخرين: فريق الأغنياء المستأثرين بالثروة المسرفين في الربا، وفريق الفقراء المعدمين أو الذين ليس لهم من الثروة ما يمكنهم من أن يقاوموا هؤلاء المرابين أو يستغنوا عنهم.

وقد وقف الإسلام في صراحة وحزم وقوة إلى جانب هؤلاء الفقراء المستضعفين وناضل عنهم وذاد خصومهم والمسرفين في ظلمهم ... أفتظن أن القرآن كان يُعنى هذه العناية كلها بتحريم الربا والحث على الصداقة وفرض الزكاة لو لم تكن حياة العرب الاقتصادية الداخلية من الفساد والاضطراب بحيث تدعو إلى ذلك؟ فالتمس لي هذا أو شيئًا كهذا في الشعر الجاهلي، وحدثني أين تجد في هذا الأدب: شعره ونثره، ما يصور لك نضالًا ما بين الأغنياء والفقراء.. ثم يتحدث عن ناحية أخرى فيقول : "كنا ننتظر أن يمثلها الشعر لأنها خليقة به وتكاد تكون موقوفة عليه، نريد هذه الناحية النفسية الخالصة، هذه الناحية التي تظهر لنا الصلة بين العربي والمال.

فالشعر الجاهلي يمثل لنا العرب أجوادًا كرامًا مهينين للأموال مسرفين في ازدرائها، ولكن في القرآن إلحاحًا في ذم البخل وإلحاحًا في ذم الطمع، فقد كان البخل والطمع إذن من آفات الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الجاهلية .

فالعرب في الجاهلية لم يكونوا كما يمثلهم هذا الشعر أجوادًا متلفين للمال مهينين لكرامته، وإنما كان منهم الجواد والبخيل، وكان منهم المتلاف والحريص، وكان منهم من يزدري المال ومنهم من يزدري الفضيلة والعاطفة في سبيل جمعه وتحصيله". ثم يتحدث عما في القرآن من تنظيم للصلة بين الدائن والمدين.

هـ- الحياة الاجتماعية : ثم ينتهي إلى الحديث عن حياة العرب الاجتماعية. في الجاهلية، فيقول : فهذا الشعر لا يعنى إلا بحياة الصحراء والبادية، وهو لا يعنى بها

إلا من نواح لا تمثلها تمثيلًا تامًّا. فإذا عرض لحياة المدر فهو يمسها مسًّا رفيقًا ولا يتغلغل في أعماقها، وما هكذا نعرف شعر الإسلام.

ومن عجيب الأمر أنا لا نكاد نجد في الشعر الجاهلي ذكر البحر أو الإشارة إليه، فإذا ذكر فذكر يدل على الجهل لا أكثر ولا أقل. أما القرآن فيمنُّ على العرب بأن الله قد سخر لهم البحر وبأن لهم في هذا البحر منافع كثيرة .

٢- اختلاف اللغة : ويرى الدكتور طه حسين أن هذا الشعر بعيد كل البعد عن أن يمثل اللغة العربية في العصر الذي يزعم الرواة أنه قيل فيه .

ثم يقول: "إن هناك خلافًا قويًّا بين لغة حمير "وهي العرب العاربة" ولغة عدنان "وهي العرب المستعربة" . ويستند في ذلك إلى أمرين، الأول: ما قاله أبو عمرو بن العلاء، وهو -كما أورده الدكتور طه-: ما لسان حمير بلساننا ولا لغتهم بلغتنا!! والثاني: أن البحث الحديث أثبت خلافًا جوهريًّا بين اللغة التي كان يصطعنها الناس في جنوب البلاد العربية، واللغة التي كانوا يصطنعونها في شمال هذه البلاد. ثم يشير إلى هذه النقوش الحميرية التي اكتشفت وإلى ما أورده جويدي في كتابه: المختصر في علم اللغة العربية الجنوبية القديمة.

ثم ينتهي من كل ذلك إلى قوله : وإذن فما خطب هؤلاء الشعراء الجاهليين الذين ينسبون إلى قحطان، والذين كانت كثرتهم تنزل اليمن وكانت قلتهم من قبائل يقال إنها قحطانية قد هاجرت إلى الشمال!

ما خطب هؤلاء الشعراء، وما خطب فريق من الكهان والخطباء يضاف إليهم نثر وسجع، وكلهم يتخذ لشعره ونثره اللغة العربية الفصحى كما نراها في القرآن؟

أما أن هؤلاء الناس كانوا يتكلمون لغتنا العربية الفصحى ففرض لا سبيل إلى الوقوف عنده فيما يتصل بالعصر الجاهلي، فقد ظهر أنهم كانوا يتكلمون لغة أخرى، أو قل لغات أخرى.

ثم يعرض لما يقال من احتمال اتخاذ أهل الجنوب اللغة العدنانية لغة أدبية، فينفيه لأن "السيادة السياسية والاقتصادية –التي من شأنها أن تفرض اللغة على الشعوب– قد كانت للقحطانيين دون العدنايين .

٣- اختلاف اللهجات: وبعد أن ينتهي من الشعر الذي يضاف إلى القحطانيين ينتقل إلى الشعر الذي يضاف إلى العدنانيين فيقول : فالرواة مجمعون على أن قبائل عدنان لم تكن متحدة اللغة ولا متفقة اللهجة قبل أن يظهر الإسلام فيقارب بين اللغات المختلفة ويزيل كثيرًا من تباين اللهجات.

وكان من المعقول أن تختلف لغات العرب العدنانية وتتباين لهجاتهم قبل ظهور الإسلام ولا سيما إذا صحت النظرية التي أشرنا إليها آنفًا وهي نظرية العزلة العربية.. فإذا صح هذا كله كان من المعقول جدًّا أن تكون لكل قبيلة من هذه القبائل العدنانية لغتها ولهجتها ومذهبها في الكلام.

وأن يظهر اختلاف اللغات وتباين اللهجات في شعر هذه القبائل الذي قيل قبل أن يفرض القرآن على العرب لغة واحدة ولهجات متقاربة. ولكننا لا نرى شيئًا من ذلك في الشعر العربي الجاهلي.

فأنت تستطيع أن تقرأ هذه المطولات أو المعلقات التي يتخذها أنصار القديم نموذجًا للشعر الجاهلي الصحيح، فسترى فيها مطولة لامرئ القيس وهو من كندة أي من قحطان، وأخرى لزهير، وأخرى لعنترة، وثالثة للبيد، وكلهم من قيس، ثم قصيدة لطرفة، وقصيدة لعمرو بن كلثوم، وقصيدة أخرى للحارث بن حلزة وكلهم من ربيعة

تستطيع أن تقرأ هذه القصائد السبع دون أن تشعر فيها بشيء يشبه أن يكون اختلافًا في اللهجة، أو تباعدًا في اللغة، أو تباينًا في مذهب الكلام: البحر العروضي هو هو، وقواعد القافية هي هي، والألفاظ مستعمل في معانيها كما تجدها عند شعراء المسلمين، والمذهب الشعري هو هو.....

فنحن بين اثنتين: إما أن نؤمن بأنه لم يكن هناك اختلاف بين القبائل العربية من عدنان وقحطان في اللغة ولا في اللهجة ولا في المذهب الكلامي، وإما أن نعترف بأن هذا الشعر لم يصدر عن هذه القبائل وإنما حمل عيها بعد الإسلام حملًا. ونحن إلى الثانية أميل منا إلى الأولى فالبرهان القاطع قائم على أن اختلاف اللغة واللهجة كان حقيقة واقعة بالقياس إلى عدنان وقحطان.

٤- الاستشهاد بالشعر الجاهلي على ألفاظ القرآن والحديث: قال الدكتور طه فيما قال : إنا نلاحظ أن العلماء قد اتخذوا هذا الشعر الجاهلي مادة للاستشهاد على ألفاظ القرآن والحديث ونحوهما ومذاهبهما الكلامية.

ومن الغريب أنهم لا يكادون يجدون في ذلك مشقة ولا عسرًا، حتى إنك لتحس كأن هذا الشعر الجاهلي إنما قُدَّ على قد القرآن والحديث كما يقد الثوب على قد لابسه لا يزيد ولا ينقص عما أراد طولًا وسعة.

إذن فنحن نجهر بأن هذا ليس من طبيعة الأشياء، وأن هذه الدقة في الموازاة بين القرآن والحديث والشعر الجاهلي لا ينبغي أن تحمل على الاطمئنان إلا الذين رُزقوا حظًّا من السذاجة لم يُتح لنا مثله. إنما يجب أن تحملنا هذه الدقة في الموازاة على الشك والحيرة، وعلى أن نسأل أنفسنا: أليس يمكن ألا تكون هذه الدقة في الموازاة نتيجة من نتائج المصادفة وإنما هي شيء تُكلف وأنفق فيه أصحابه بياض الأيام وسواد الليالي؟ .

٥- أما آخر الأمور التي لحظها الدكتور طه حسين في الشعر الجاهلي، وبعثت في نفسه الشك والريبة، ودفعته إلى أن يصمه بأنه منحول موضوع، فهو أنه لم يصلنا إلا عن طريق الرواية الشفهية، وهو لا يتحدث عن هذا الأمر حديثًا مفصلًا كما صنع في الأمور الأربعة السابقة، وإنما اكتفى بأن يشير إليه إشارات عابرة لا يقف عندها طويلًا، وإن كان حديثه في جملته يتضمن أثرهذا الدافع الأخير وهو الرواية الشفهية في نفسه، ولعل أصرح جملة عن هذا الأمر قوله : وحسبي أن شعر أمية بن أبي الصلت لم يصل إلينا إلا من طريق الرواية والحفظ لأشك في صحته كما شككت في شعر امرئ القيس والأعشى وزهير.

لقد ختم الدكتور طه فصله الذي تحدث فيه عن دوافع شكه في الشعر الجاهلي بعبارة فيها جماع ما ذكر، وفيها تمهيد لما سيذكر، وذلك قوله : إن من الحق علينا لأنفسنا وللعلم أن نسأل: أليس هذا الشعر الجاهلي الذي ثبت أنه لا يمثل لغتهم، أليس هذا الشعر قد وضع وضعًا وحمل على أصحابه حملًا بعد الإسلام؟

أما أنا فلا أكاد أشك الآن في هذا. ولكننا محتاجون بعد أن ثبتت لنا هذه النظرية أن نتبين الأسباب المختلفة التي حملت الناس على وضع الشعر والنثر ونحلهما بعد الإسلام.

أسباب النحل:

ومن أجل ذلك تراه في "الكتاب الثالث" يبسط "أسباب نحل الشعر"، بسطًا أفرغ فيه كثيرًا من الجهد حتى لقد وصل بنا إلى أن " كل شيء في حياة المسلمين في القرون الثلاثة الأولى كان يدعو إلى نحل الشعر وتلفيقه سواء في ذلك الحياة الصالحة حياة الأتقياء والبررة، والحياة السيئة حياة الفسق وأصحاب المجون وهو يرى أن هذه الأسباب التي دعت إلى نحل الشعر ووضعه مردها إلى خمسة أمور:

أولًا– السياسة:

وهو لا يعني السياسة بمعناها الواسع الذي نفهمه منها الآن، وإنما يحصر مدلول السياسة في العصبية القبلية، وحتى هذه العصبية لا يتحدث عنها حديثًا شاملًا، ولكنه يكتفي بمثالين:

١– العصبية : بين المهاجرين والأنصار، أو بعبارة أصح: بين قريش والأنصار ويورد، لتأييد رأيه، روايتين، الأولى: ما يُروَى من أن عمر بن الخطاب نهى عن رواية الشعر الذي تهاجي به المسلمون والمشركون أيام النبي، ويرى الدكتور طه أن هذه الرواية نفسها تثبت رواية أخرى وهي أن قريشًا والأنصار تذاكروا ما كان قد هجا به بعضهم بعضًا أيام النبي وكانوا حراصًا على روايته، ويجدون في ذلك من اللذة والشماتة ما لا يشعر به إلا صاحب العصبية القوية إذا وتر أو انتصر.

ويدعم رأيه هذا بما يُروى أيضًا عن عمر من قوله لأصحاب النبي: قد كنت نهيتكم عن رواية هذا الشعر لأنه يوقظ الضغائن، فأما إذ أبوا فاكتبوه . ويعقب الدكتور طه على ذلك بقوله : وسواء أقال عمر هذا أم لم يقله، فقد كان الأنصار يكتبون هجاءهم لقريش على ألا يضيع .

والثانية: ما ذكر من أن ابن سلام قال: وقد نظرت قريش فإذا حظها من الشعر قليل في الجاهلية، فاستكثرت منه في الإسلام. وعقب عليه الدكتور بقوله : وليس من شك عندي في أنها استكثرت بنوع خاص من هذا الشعر الذي يهجي به الأنصار.

٢– وأما المثال الثاني فهو لا يورده في هذا الفصل الذي عقده عن العصبية القبلية، وإنما ينثره في الكتاب الذي يليه حين يتحدث عن امرئ القيس وشعره فيقول : ونحن نذهب هذا المذهب نفسه في تفسير هذه الأخبار والأشعار التي تمس تنقل امرئ

القيس في قبائل العرب، فهي محدثة نُحلت حتى تنافست القبائل العربية في الإسلام، وحين أرادت كل قبيلة أن تزعم لنفسها من الشرف والفضل أعظم حظ ممكن .

ولم يكتف الدكتور بذلك بل يقول : ونحن لا نقف عند استخلاص هذه النتيجة وتسجيلها وإنما نستخلص منها قاعدة علمية، وهي أن مؤرخ الآداب مضطر حين يقرأ الشعر الذي يسمى جاهليًّا أن يشك في صحته كلما رأى شيئًا من شأنه تقوية العصبية أو تأييد فريق من العرب على فريق. ويجب أن يشتد هذا الشك كلما كانت القبيلة أوالعصبية التي يؤيدها هذا الشعر قبيلةً أو عصبية قد لعبت –كما يقولون– دورًا في الحياة السياسية للمسلمين .

ثانيًا– الدين: وهو يدخل في باب الدين ما يلي من الأمثلة:

١– فكان هذا النحل في بعض أطواره يقصد به إلى إثبات صحة النبوة وصدق النبي، وكان هذا النوع موجهًا إلى عامة الناس.

وأنت تستطيع أن تحمل على هذا كل ما يُروَى من هذا الشعر الذي قيل في الجاهلية ممهدًا لبعثة النبي وكل ما يتصل بها من هذه الأخبار والأساطير التي تُروَى لتقتنع العامة بأن علماء العرب وكهانهم، وأحبار اليهود ورهبان النصارى، كانوا ينتظرون بعثة نبي عربي يخرج من قريش أو من مكة. وفي سيرة ابن هشام وغيرها من كتب التاريخ والسير ضروب كثيرة من هذا النوع .

٢– وأنت تستطيع أن تحمل على هذا لونًا آخر من الشعر المنحول لم يضف إلى الجاهليين من عرب الإنس، وإنما أضيف إلى الجاهليين من عرب الجن.

والغرض من هذا النحل –فيما نرجح– إنما هو إرضاء حاجات العامة الذين يريدون المعجزة في كل شيء، ولا يكرهون أن يقال لهم: إن من دلائل صدق النبي في

رسالته أنه كان منتظرًا قبل أن يجيء بدهر طويل، تحثت بهذا الانتظار شياطين الجن وكهان الإنس.

٣- ونوع آخر من تأثير الدين في نحل الشعر وإضافته إلى الجاهليين، وهو ما يتصل بتعظيم شأن النبي من ناحية أسرته ونسبه في قريش .

٤- نحو آخر من تأثير الدين في نحل الشعر، وهو هذا الذي يلجأ إليه القصاص لتفسير ما يجدونه مكتوبًا في القرآن من أخبار الأمم القديمة البائدة كعاد وثمود ومن إليهم، فالرواة يضيفون إليهم شعرًا كثيرًا.

وقد كفانا ابن سلام نقده وتحليله حين جد في طبقات الشعراء في إثبات أن هذا الشعر وما يشبهه مما يُضاف إلى تُبع وحمير موضوع منحول وضعه ابن إسحاق ومن إليه من أصحاب القصص .

٥- ونحو آخر من تأثير الدين في نحل الشعر، وذلك حين ظهرت الحياة العلمية عند العرب بعد أن اتصلت الأسباب بينهم وبين الأمم المغلوبة. فأرادوا هم أو الموالي أو أولئك وهؤلاء أن يدرسوا القرآن درسًا لغويًّا ويثبتوا صحة ألفاظه ومعانيه.

ولأمر ما شعروا بالحاجات إلى إثبات أن القرآن كتاب عربي مطابق في ألفاظه للغة العرب، فحرصوا على أن يستشهدوا على كل كلمة من كلمات القرآن بشيء من شعر العرب يثبت أن هذه الكلمة القرآنية عربية لا سبيل إلى الشك في عربيتها.

٦- وهنا نوع جديد من تأثير الدين في نحل الشعر، فهذه الخصومات بين العلماء كان لها تأثير غير قليل في مكانة العالم وشهرته ... ومن هنا كان هؤلاء العلماء حراصًا على أن يظهروا دائمًا بمظهر المنتصرين ... وأي شيء يتيح لهم هذا مثل الاستشهاد بما قالته العرب قبل نزول القرآن .

وهم مجمعون على أن هؤلاء الجاهليين الذين قالوا في كل شيء كانوا جهلة غلاظًا فظاظًا أفترى إلى هؤلاء الجهال الغلاظ يُستشهد بجهلهم وغلظتهم على ما انتهت إليه الحضارة العباسية من علم ودقة فنية؟

فالمعتزلة يثبتون مذاهبهم بشعر العرب الجاهليين، وغير المعتزلة من أصحاب المقالات ينقضون آراء المعتزلة معتمدين على شعر الجاهليين ... لأمر ما كان البدع في العصر العباسي عند فريق من الناس أن يرد كل شيء إلى العرب حتى الأشياء التي استحدثت أو جاء بها المغلوبون من الفرس والروم وغيرهم.

٧- ويعرض لما يُروَى من وجود أفراد قبل الإسلام كانوا يحتفظون بالحنيفية دين إبراهيم وكان في أحاديثهم ما يشبه الإسلام، فيقول: فأحاديث هؤلاء الناس قد وضعت لهم وحملت عليهم بعد الإسلام لا لشيء إلا ليثبت أن للإسلام في بلاد العرب قدمة وسابقة. وعلى هذا النحو تستطيع أن تحمل كل ما تجد من هذه الأخبار والأشعار والأحاديث التي تضاف إلى الجاهليين والتي يظهر بينها وبين ما في القرآن والحديث شبه قوي أو ضعيف.

٨- ثم يتحدث عن المسيحية واليهودية فيقول : ليس من المعقول أن ينتشر هذان الدينان في البلاد العربية دون أن يكون لهما أثر ظاهر في الشعر العربي قبل الإسلام.

وقد رأيت أن العصبية العربية حملت العرب على أن ينحلوا الشعر ويضيفوه إلى عشائرهم في الجاهلية بعد أن ضاع شعر هذه العشائر، فالأمر كذلك في اليهود والنصارى: تعصبوا لأسلافهم من الجاهليين، وأبوا إلا أن يكون لهم شعر كشعر غيرهم من الوثنيين، وأبوا إلا أن يكون لهم مجد وسؤدد كما كان لغيرهم مجد وسؤدد،

فنحلوا كما نحل غيرهم ونظموا شعرًا أضافوه إلى السموءل بن عادياء وإلى عدي بن زيد وغيرهما من شعراء اليهود والنصارى .

ثالثًا- القصص:

وقد عرض للقصص والقصاصين غير مرة فيما سبق من فصول كتابه، ولكنه في هذا الفصل يخص القصص والقصاصين بالحديث كله. فبعد أن يتحدث عن نشأة القصص وقيام طائفة القصص يقول: وأنت تعلم أن القصص العربي لا قيمة له ولا خطر في نفس سامعيه إذا لم يزينه الشعر من حين إلى حين.... وإذن فقد كان القصص أيام بني أمية وبني العباس في حاجة إلى مقادير لا حد لها من الشعر يزينون بها قصصهم، ويدعمون بها مواقفهم المختلفة فيه.

وهم قد وجدوا من هذا الشعر ما كانوا يشتهون. ولا أكاد أشك في أن هؤلاء القصاص لم يكونوا يستقلون بقصصهم، ولا بما يحتاجون إليه من الشعر في هذا القصص، وإنما كانوا يستعينون بأفراد من الناس يجمعون لهم الأحاديث والأخبار ويلفقونها، وآخرين ينظمون لهم القصائد وينسقونها.

ولدينا نص يبيح لنا أن نفترض هذا الفرض، فقد حدثنا ابن سلام أن ابن إسحاق كان يعتذر عما يروي من غثاء الشعر فيقول: لا علم لي بالشعر، إنما أوتَى به فأحمله. فقد كان هناك قوم إذن يأتون بالشعر وكان هو يحمله.

فمن هؤلاء القوم؟ أليس من الحق لنا أن نتصور أن هؤلاء القصاص لم يكونوا يتحدثون إلى الناس فحسب، وإنما كان كل واحد منهم يشرف على طائفة غير قليلة من الرواة والملفقين ومن النظام والمنسقين، حتى إذا استقام لهم مقدار من تلفيق أولئك وتنسيق هؤلاء طبعوه بطابعهم ونفخوا فيه من روحهم وأذاعوه بين الناس.

ثم يخص بالذكر ثلاثة ضروب من القصص: قصص لتفسير طائفة من الأمثال والأسماء والأمكنة .وقصص المعمرين وأخبارهم . وقصص أيام العرب وأخبارها .

رابعًا: الشعوبية:

ثم يتحدث عن الخصومة بين العرب والموالي في الإسلام فيقول٤: "أما نحن فنعتقد أن هؤلاء الشعوبية قد نحلوا أخبارًا وأشعارًا وأضافوها إلى الجاهليين والإسلاميين. ولم يقف أمرهم عند نحل الأخبار والأشعار، بل هم قد اضطروا خصومهم ومناظريهم إلى النحل والإسراف فيه. ويقول : كانت الشعوبية تنحل من الشعر ما فيه عيب للعرب وغض منهم. وكان خصوم الشعوبية ينحلون من الشعر ما فيه ذود عن العرب ورفع لأقدارهم .

ثم يعيد ما أشار إليه عند حديثه عن الدين، فيقول٦: "ونوع آخر من النحل دعت إليه الشعوبية، تجده بنوع خاص في كتاب الحيوان للجاحظ وما يشبهه من كتب العلم التي ينحو بها أصحابها نحو الأدب. ذلك أن الخصومة بين العرب والعجم دعت العرب وأنصارهم إلى أن يزعموا أن الأدب العربي القديم لا يخلو أو لا يكاد يخلو من شيء تشتمل عليه العلوم المحدثة؛ فإذا عرضوا لشيء مما في هذه العلوم الأجنبية فلا بد من أن يثبتوا أن العرب قد عرفوه أو ألموا به أو كادوا يعرفونه ويلمون به.

خامسًا: الرواة:

والرواة في رأيه بين اثنين: إما أن يكونوا من العرب، فهم متأثرون بما كان يتأثر به العرب، وإما أن يكونوا من الموالي، فهم متأثرون بما كان يتأثر به الموالي من تلك الأسباب العامة، وهم على تأثرهم بهذه الأسباب العامة متأثرون بأشياء أخرى هي التي أريد أن أقف عندها وقفات قصيرة. ولعل أهم هذه المؤثرات التي عبثت بالأدب

العربي وجعلت حظه من الهزل عظيمًا: مجون الرواة وإسرافهم في اللهو والعبث، وانصرافهم عن أصول الدين وقواعد الأخلاق إلى ما يأباه الدين وتنكره الأخلاق.

ثم يتحدث عن حماد وخلف وأبي عمرو الشيباني، وبعد أن يعرض ما يُروى عن مجونهم وفسقهم ووضعهم الأشعار يقول :"وإذا فسدت مروءة الرواة كما فسدت مروءة حماد وخلف وأبي عمرو الشيباني، وإذا أحاطت بهم ظروف مختلفة تحملهم على الكذب والنحل ككسب المال والتقرب إلى الأشراف والأمراء والظهور على الخصوم والمنافسين، ونكاية العرب نقول: إذا فسدت مروءة هؤلاء الرواة وأحاطت بهم مثل هذه الظروف، كان من الحق علينا ألا نقبل مطمئنين ما ينقلون إلينا من شعر القدماء ... وهناك طائفة من الرواة غير هؤلاء ليس من شك في أنهم كانوا يتخذون النحل في الشعر واللغة وسيلة من وسائل الكسب. وكانوا يفعلون ذلك في شيء من السخرية والعبث نريد بهم هؤلاء الأعراب الذين كان يرتحل إليهم في البادية رواة الأمصار يسألونهم عن الشعر والغريب.

***

النثر الجاهلي

النثر الجاهلي

النثر، هو الكلام الذي لم ينظم في أوزان وقواف، وهو على ضربين: أما الضرب الأول فهو االنثر العادي يقال في لغة التخاطب، وليست لهذا الضرب الضرب قيمة أدبية، إلا ما يجرى فيه أحيانا من أمثال وحكم، وأما الضرب الثاني، فهو النثر الذي يرتفع فيه أصحابه إلى لغة فيها فن ومهارة وبلاغة.

وهذا الضرب هو الذي يعنى النقاد في اللغات المختلفة ببحثه ودرسه، وبيان ما مر به من أحداث وأطوار، وما يمتاز به في كل طور من صفات وخصائص، وهو يتفرع إلى جدولين كبيرين، هما الخطابة والكتابة الفنية –ويسميها بعض الباحثين باسم النثر الفني– وهي تشمل القصص المكتوب، كما تشمل الرسائل الأدبية المحبرة، وقد تتسع فتشمل الكتابة التاريخية المنمقة.

ومن يرجع إلى العصر الجاهلي، وأخباره يجد هذا الضرب الأخير من النثر يلعب دورا مهما في حياة العرب حينئذ، إذ كان عرب الجاهلية مشغوفين بالتاريخ والقصص عن فرسانهم ووقائعهم وملوكهم، يقطعون بذلك أوقات سمرهم في الليل وحول خيامهم، وقد دارت بينهم أطراف من أخبار الأمم المجاورة لهم ممتزجة بالخرافات والأساطير.

ففي السيرة النبوية أن النضر بن الحارث المكي، كان يقص على قريش أحاديث عن أبطال الفرس أمثال رستم وإسفنديار، وأكثر ما كان يستهويهم من القصص أحاديث قصاصهم عن أيامهم وحروبهم في الجاهلية، مما يصوره لنا كتاب شرح النقائض لأبي عبيدة، وكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني، وقد تلاهما اللغويون والأدباء يعنون بتلك الأيام والحروب عناية واسعة على نحو ما هو معروف عن ابن عبد ربه

فـي "العقـد الفريـد" وابـن الأثيـر فـي الجـزء الأول مـن كتابـه "الكامـل"، والميـداني فـي الفصل التاسع والعشرين من كتابه "مجمع الأمثال".

وينبغي أن لا نعلق أهمية تاريخية، أو أدبية على هذا القصص، فإن الرواة حرفوا فيه كثيرا قبل أن يأخذ شكله النهائي عند أبي عبيدة، وغيره من مؤلفي العصر العباسي، وتوضـح ذلـك توضـيحا تامـا قصـة الزبـاء ملكـة تـدمر ببـاديـة الشـام فـي القرن الثالـث الميلادي.

وهي تلك القصة التي رويت في الكتب العربية عن هشام بن محمد الكلبي، والتي تـزعم أنهـا بنـت عمـرو بـن الظـرب العمليقـي، وأن حروبـا نشـبت بينـه وبـين جذيمـة الأبـرش ملـك الحيـرة، وتنـوخ انتهـت بقتـل عمـرو، فاحتالـت بنتـه الزبـاء علـى جذيمـة، حتى قدم عليها فقتلته، وخلفه ابن أخته عمرو بن عدي، فاحتال بمساعدة أحد أتباعه -ويسمى قصيرًا- حتى انتقم منها في مدينتها التي بنتها على الفرات، بأن حمل إلى حصنها رجالا في جواليق أو صناديق، وفتحت لـه الحصن، وهي تظنـه يحمل بعض عروض التجارة.

وخرج الرجال من الجواليق، فقتلوها واستولوا على المدينـة. وهي أسطورة لا تتفق في شـيء ووثـائق التـاريخ الرومـاني الصـحيحة عـن الزبـاء، أو كمـا يسـمونها زنبوبيـا Zenobia زوج أذينة الذي قتل غدرا، وقد نشرت سلطانها على العراق والشام ومصر وآسيا الصغرى، وصارعت الرومان صراعا عنيفا، حتى تصدى لها "أورليان" وانتصر على جيوشها، وحاصر حاضرتها تدمر.

وطـال الحصـار ويئسـت مـن النصـر، فحاولـت الفـرار ولكـن جنـوده تعقبوهـا وأسـارها، وأخذها معه أسيرة إلـى رومـا حيث قضيت بقية أيامها وكأن لا علاقة بين شخصية زنوبيـا التاريخيـة، وشخصـية الزبـاء فـي القصـة العربيـة، فقد غيـرت فـي القصـة جميـع

المعالم التاريخية، حتى مدينتها تدمر وضع القصاص مكانها مدينتين بنتهما على الفرات، وحتى اسمها وهو "زنوبيا" حرف إلى الزباء، وقد جلبوا جذيمة من الحيرة ليحل محل زوجها أذينه الذي قتل غدرًا.

وإذا كنا لا نستطيع أن نعتمد على هذا القصص في حوادث التاريخ، فأولى لنا أن لا نعتمد عليه في وصف صورة النثر الجاهلي، وبيان خصائصه الفنية؛ لأنه لم يكتب في العصر الجاهلي، ولا في عصر قريب منه، وإنما كتب في العصر العباسي.

ومن أجل ذلك كنا لا نستطيع أن نعتد – من الوجهة الأدبية – بما يروى عن هذا العصر من عناصر القصص والتاريخ؛ لأن الرواة حرفوا لفظه، بل لقد حرفوا معناه على نحو ما حرفوا قصة زنوبيا، أو بنت زباي وأخبارها، ولو أن العرب كتبوا تاريخهم، وقصصهم في العصر الجاهلي لاعتددنا بهذا اللون من نثرهم، ولكنهم لم يكتبوا منه شيئا.

أما ما يروى عن هشام بن محمد الكلبي من أنه رأى في بيع الحيرة بعض مدونات استخراج منها أخبار العرب، فإننا لا نستطيع الاعتماد على روايته؛ لأنه متهم في كثير مما يرويه، وحتى لو صحت روايته، فأغلب الظن أن ما شاهده من تلك المدونات لم يكن مكتوبا بالعربية، إنما كان مكتوبا بالسريانية التي كانت شائعة في الحيرة قبل الإسلام.

وفي مكة سبعة عشر كاتبا، وفي المدينة أحد عشر، وكان بين البدو من يعرف الكتابة مثل أكثم بن صيفي حكيم وخطيبها، وكان ابن أخيه حنظلة بن الربيع من كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم. ومن الشعراء المتبدين الذين اشتهروا بمعرفة الكتابة في هذا العصر المرقش الأكبر وهو من بكر، ولبيد بن ربيعة، وهو من بني

عامر بن صعصعة. ولعل من الدليل على شيوع الكتابة بين البدو أننا نجد شعراءهم يصفون الأطلال كثيرا بنقوش الكتابة .

إن الجاهليين كان لهم نثر أدبي، فليس هناك مانع يجعل ذلك مستحيلًا أو معدومًا، وإذا كان لهم شعر، فلا بد أنه كان لهم نثر، يتحلل فيه القائل من قيود الشعر التي قد تقف أمام الأديب فلا يستطيع أن يلتزمها، والواقع أنه كان لهم نثر، وأنهم حتمًا كانوا يجيدون النثر الأدبي، بدليل نزول القرآن، وفهمهم له، ومجادلتهم للنبي صلى الله عليه وسلم فيما كان ينزل عليه، وما يتلوه عليهم، وبدليل تحدي القرآن لهم أن يأتوا بمثله أو بعضه.

والقرآن الكريم ليس شعرًا، والتحدي لا يكون له معنى إلا إذا كان في الناحية التي يزعم المتحدى أن له فيها نبوغًا، ويدعي لنفسه عليها قوة واقتدارًا، ومن ثم لا بد أن الله قد أعجز أمة ذات قدرة فائقة على النثر.

ونثر الجاهليين لا شك أنه كان كثيرًا، يفوق في الكم ما كان لهم من شعر، وقد سبق أن وضحنا ذلك، ولكن سنة الكون دائما تجعل الشعر أوفر حظًّا من العناية والاهتمام، فيحفظ، ويتناقل، ويروى على مر الأجيال أكثر من الشعر. ولهذا نتوقع أن يكون ما حفظ لنا من نثر الجاهليين أقل بكثير مما حفظ لنا من شعرهم.

وإذا كان في الشعر قافية موحدة، ومقاطع موسيقية منتظمة تجعله أسهل علوقًا بالذهن، وأكثر دوامًا بالذاكرة، فإن ذلك أيضًا جعله يثبت في الحفظ، ويتناقل من جيل إلى جيل بنفس الألفاظ والعبارات اللهم في القليل النادر، فيغلب على الظن؛ حينئذ أن عدم وجود هذه الخاصية في النثر قد أثرت في حفظه وفي روايته، فكان أشق في الحفظ، وأقل دوامًا في الذاكرة، ثم كان عرضة للتغيير أو التحوير، مع المحافظة على المعنى المقصود، بطبيعة الحال، ومن هنا لا شك أن النثر الجاهلي كان من

الصعب على الرواة أن يحفظوه كله، وإذا حفظوا بعضه، فالغالب أنه قد ضاعت منهم بعض ألفاظه. ولكن مهما يكن، فمن المؤكد أنه بقيت نصوص منه كان لها حظ الرعاية والاهتمام، فظلت سليمة كما صنعها أصحابها، حتى تسلمتها بطون الكتب وأمهات المراجع، فوصلتنا صحيحة سليمة.

ازدهار النثر الجاهلي وأنواعه:

إن ظروف الحياة التي كان يعيش فيها الجاهليون كانت تدعوهم إلى القول، ولا شك أن هذه الظروف نتج عنها نثر لهؤلاء الموهوبين في صناعة الكلام وليس لديهم موهبة الشعر، وهم ولا شك كانوا أكثر عددًا من الشعراء، بدليل ما نعلمه، وما نشاهده في الأمم القديمة والحديثة في العصور السالفة وعصرنا الحاضر.

لقد كان للعرب اجتماعات خاصة وعامة، وعلى نطاق ضيق وعلى نطاق واسع، وكانت بينهم منافسات وتسابق في المفاخر، والأمجاد، والأفعال، والعادات، وحدثت بينهم مشكلات، وخصومات، وعداوات، كما كانت لهم تجارب في الحياة، فتكونت لديهم خبرات، كانوا يحبون –بطبيعة الحال– أن يضعوها بين أيدي من يحبون، لكي يستفيدوا بها في حياتهم، كل هذه المناسبات كانت تستدعي القول، ولسنا نعني القول العادي، كهذا الذي يتحدث به الشخص لقضاء مصالحه العاجلة، وحاجاته اليومية، إنما نقصد ذلك القول المؤثر الذي يحفل به صاحبه، ويودع فيه من طاقات الإثارة كل ما يستطيع.

فالقبيلة في مجتمعها الخاص، وبخاصة حينما ينتهون من مشاغلهم اليومية، ويجتمعون بالليل في مجالس السمر، ولا شك أنهم كانوا يتجاذبون أطراف الحديث فيما يجري من شئونهم أو شئون غيرهم، أو يستمعون إلى من أوتي حظًّا أوفر من القدرة على الكلام الفصيح، ولا شك أن أحسن ما كان يشوقهم أن يستمعوا إليه

أحاديث الآباء والأجداد، وما كان لهم من مفاخر وأمجاد، ومن ثم لا بد أنه كان هناك قصص طريف يحاول فيه القصاص أن يستعيد الحوادث، ويسردها للسامعين بأسلوب شيق أخاذ، ولا ريب أن هؤلاء القصاصين قد اتخذوا من الحوادث الجارية، والأحداث السابقة مادة لقصصهم.

ومن هنا وجدت قصص الأيام التي تحكي تاريخ الحروب بين الجاهليين، وقد حفلت بها كتب كثيرة من أهمها شرح النقائض لأبي عبيدة، وغني عن البيان أن ما يحكيه أبو عبيدة وأمثاله عن الأيام وغيرها مما يتصل بالجاهليين، ليس من نثر الجاهليين ولا يمثل أسلوبهم، إلا ما يجيء في ثنايا كلام المؤلفين من محفوظات بنصوصها تنسب إلى قائلين فهذه جاهلية بالطبع.

كذلك حفلت كتب التاريخ القديم بقصص الجاهليين عن ملوك المناذرة، والغساسنة، والحميريين، والفرس، وغيرهم، وبأخبار سادتهم، ورؤسائهم، وكهانهم، وعشاقهم، وشعرائهم، وما كان لهم من أساطير.

وهم في اتصالاتهم بعضهم ببعض، ومع غيرهم كانوا يتحدثون عن خبراتهم وتجاربهم في مختلف الاتجاهات، أو يتبارون في السيادة والشرف، أو في القوة والهيبة، أو في المكانة والاحترام، أو يتناقشون ويتبادلون الآراء لحل المشكلات وفض المنازعات، أو يتآلفون بالمحالفات أو المصاهرات، أو يزجون أوقات فراغهم بما يسر آذانهم ويمتع أفئدتهم.

كل هذا هيأ فرصًا كثيرة لمن لديهم موهبة أدبية، وليست فيهم مقدرة شعرية لكي يمارسوا فنونًا أدبية نثرية متعددة. ومن ثم وردت لهم في كتب الأدب والتاريخ أنواع من النثر الأدبي، نجد منها: الحكم، والأمثال، والقصص، والمفاخرات، والمنافرات، والخطب، والوصايا، وسجع الكهان .

الحكم والأمثال:

والحكمة قول رائع يتضمن حكمًا صحيحًا مسلَّمًا به، أما المثل فهو قول يشبه مضربه بمورده فهو يقصد به تشبيه الحال التي حكي فيها بالحال التي قيل بسببها، ولذلك يحكى المثل بلفظه كما هو بدون تغيير مهما كان نوع الخطاب أو نسق الكلام.

وكل من الحكمة والمثل، عبارة قصيرة بليغة، ولكنها غاية في تأدية المعنى المقصود. وكل منهما يكون شعرًا، ويكون نثرًا، لكنهما في النثر أكثر دورانًا، ولذلك يعدان في النثر. وهما ثمار ناضجة من ثمرات الاختبار الطويل، والتجربة الصادقة، والعقل الراجح، والرأي السديد.

وكثيرًا ما تقتبس الحكم والأمثال، وتوضع في الأقوال والأشعار، فتضفي على الكلام زينة؛ فوق ما تؤديه من إصابة المعنى وحسن التشبيه، ولذلك كان من الأدباء من نظم فقال له أخوه: إني أخاف عليك الحية، ألا ترى أن أحدًا لم يهبط ذلك الوادي إلا أهلكته. قال: فوالله لأهبطن، فهبط ذلك الوادي.

فرعى إبله زمانًا، ثم إن الحية لدغته، فقتلته. فقال أخوه: ما في الحياة بعد أخي خير، ولأطلبن الحية فأقتلها، أو لأتبعن أخي، فهبط ذلك الوادي، فطلب الحية لقتلها، فقالت: ألست ترى أني قتلت أخاك، فهل لك في الصلح، فأدعك بهذا الوادي، فتكون به، وأعطيك ما بقيت دينارًا كل يوم، قال: أفاعلة أنت؟ قالت: نعم. قال: فإني أفعل. فحلف لها وأعطاها المواثيق: لا يضيرها.

وجعلت تعطيه كل يوم دينارًا، فكثر ماله ونمت إبله، حتى كان من أحسن الناس حالًا، ثم إنه ذكر أخاه، فقال: كيف ينفعني العيش، وأنا أنظر إلى قاتل أخي فلان؟ فعمد إلى فأس، فأخذها، ثم قعد لها، فمرت به، فتبعها، فضربها فأخطأها، ودخلت الجحر. فرمى الفأس بالجبل فوقع فوق جحرها، فأثر فيه. فلما رأت ما فعل قطعت

عنه الدينار الذي كانت تعطيه، ولما رأى ذلك تخوف شرها وندم، فقال: هل لك أن نتوافق، ونعود إلى ما كنا عليه؟ فقالت: كيف أعاهدك وهذا أثر فأسك".

وقد تتضمن القصة الواحدة أكثر من مثل، سواء كانت حقيقية أو فرضية كما في حادثة الزباء وقصير، فقد ذكروا فيها أقوالًا كثيرة ذهبت أمثالها، منها، "لأمر ما جدع قصير أنفه" و "بيدي لا بيد عمرو" ومن ذلك ما تزعمه العرب من أن أرنبًا التقطت تمرة، فاختلسها ثعلب، فأكلها، فانطلقا يختصمان إلى الضب، فقالت الأرنب: يا أبا الحسل.

قال: سميعًا دعوت، قالت: أتيناك لنختصم إليك. قال: عادلًا حكمتما، قالت: فاخرج إلينا، قال: في بيته يؤتى الحكم، قالت: إني وجدت تمرة. قال: حلوة فكليها، قالت: فاختلسها الثعلب. قال: لنفسه بغى الخير. قالت: فلطمته. قال: بحقك أخذت. قالت: فلطمني. قال: حر انتصف. قالت: فاقض بيننا، قال: قد قضيت، فذهبت أقواله كلها أمثالًا.

وقد عني العرب بالأمثال، فألفت فيها كتب كثيرة، منها كتاب صحار العبدي أحد النسابين في أيام معاوية بن أبي سفيان. وكتاب آخر لمعاصره عبيد بن شرية ومنها كتاب أمثال العرب للمفضل الضبي، وجمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري، ومجمع الأمثال للميداني المتوفى سنة ٥١٨هـ، وكتاب المستقصى للزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨هـ.

المفاخرات والمنافرات:

والمفاخرة: محاورة كلامية بين اثنين أو أكثر، وفيها يتباهى كل من المتفاخرين بالأحساب والأنساب، ويشيد بما له من خصال، وما قام به من جلائل الأعمال، وكانت تحدث بين القبائل كربيعة ومضر، وبكر وتغلب من ربيعة، وقيس وتميم من مضر، وقد تغلغلت المفاخرات في بطونهم حتى كانت بين ابني العم في العشيرة الواحدة مثل ما حدث بين عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة، وقد تنافرا إلى هرم بن قطبة الفزاري.

والمنافرة كالمفاخرة وأشد، وكان الرجلان إذا تنازعا الفخر، وادعى كل منهما أنه متفوق على صاحبه، نفرا إلى حاكم يرضيانه، ليقضي بينهما، فمن فضله على صاحبه كان له غنم الحكم، وعلى صاحبه غرم الجعل المفروض من الإبل أو غيرها.

ولكن الحكم كثيرًا ما كان يتحاشى الحكم لأحدهما على الآخر، ويعمد إلى الصلح بين المتنافرين، حسمًا للنزاع، وتفاديًا للشر.

ويلقي عليهما كلامًا بليغًا يدعوهما فيه إلى الصفاء والسلام والمودة والمحبة. من ذلك ما كان من هاشم بن عبد مناف في خزاعة وقريش حين نفرتا إليه، فقال: "أيها الناس، نحن آل إبراهيم، وذرية إسماعيل، وبنو النضر بن كنانة، وبنو قصي بن كلاب، وأرباب مكة، وسكان الحرم، لنا ذروة الحسب والنسب، ومعدن المجد، ولكل في كل حلف يجب عليه نصرته، وإجابة دعوته، إلا ما دعا إلى عقوق عشيرة وقطع رحم. يا بني قصي، أنتم كغصني شجرة، أيهما كسر أوحش صاحبه، والسيف لا يصان إلا بغمده، ورامي العشيرة يصيبه سهمه. أيها الناس، الحلم شرف، والصبر ظفر، والمعروف كنز، والجود سؤدد، والجهل سفه، والأيام دول، والدهر غير، والمرء

منسوب إلى فعله، ومأخوذ بعمله، فاصطنعوا المعروف تكسبوا الحمد، ودعوا الفضول تجانبكم السفهاء، وأكرموا الجلس يعمر ناديكم، وحابوا الخليط يرغب في جواركم، وأنصفوا من أنفسكم يوثق بكم، وعليكم بمكارم الأخلاق فإنها رفعة، وإياكم والأخلاق الدنية، فإنها تضع الشرف، وتهدم المجد، ومقام الحليم عظة لمن انتفع به". فأذعن له الفريقان بالطاعة، وتصالحا.

ومن ذلك ما حدث من هرم بن قطبة الفزاري حين نفر إليه عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة العامريان، فقد روي: أن عامرًا وقف لعلقمة يومًا، فجعل ينازعه الشرف في قومه، وتفاقم بينهما الأمر، فكان مما قاله عامر: والله لأنا أشرف منك حسبًا، وأثبت منك نسبًا، وأطول قصبًا! قال علقمة: أنا فرك، وأنا أشرف منك أمة، وأطول قمة، وأبعد همة. وطال بينهما الكلام.

فتواعدا على الخروج إلى من يحكم بينهما. وجعلا يطوفان الأحياء. وهاب الناس أن يحكموا بينهما. خيفة أن يقع في حييهما الشر. حتى دفعا إلى هرم بن قطبة الفزاري "وهو غير هرم بن سنان المري ممدوح زهير". فلما علم بأمرهما، أمر بنيه أن يفرقوا جماعة الناس تفاديًا للفتنة، وجعل يطاولها، ويخوف كل واحد منهما من صاحبه حتى لم يبق لواحد منهما هم سوى أن يسوي في حكمه بينهما، ثم دعاهما بعد ذلك، والناس شهود، فقال لهما: أنتما كركبتي البعير، تقعان إلى الأرض معًا، وتقومان معًا. فرضيا بقوله، وانصرفا عنه إلى حييهما.

وقد عمر هرم هذا إلى أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه. فقال عمر: أيهما كنت منفرًا؟

فقال: يا أمير المؤمنين لو قلتها الآن لعادت جذعة "يعني الحرب أو الفتنة" فقال له عمر: إنك لأهل لموضعك من الرياسة .

الخطابة:

الخطابة حديث يقصد به إثارة المشاعر وإلهاب العواطف في الحال. والحياة الجاهلية جعلت الخطابة ضرورية لهم، فهم في اجتماعاتهم وفي عرض آرائهم، وفي القيام بواجباتهم في السفارات والوفود كانوا -ولا شك- يحتاجون إلى الإفصاح عما يريدونه؛ رغبة في الوصول إلى مقاصدهم وكلما كان إفصاحهم أقوى وأعذب كان تأثيره في القلوب أشد، فساعد ذلك على وجود الخطابة بينهم.

وقد ثبت أنهم كانوا يخطبون في مناسبات شتى، فبالخطابة كانوا يحرضون على القتال؛ استثارة للهمم، وشحذًا للعزائم، وبها كانوا يحثون على شن الغارات؛ حبًّا في الغنيمة، أو بثًّا للحمية رغبة في الأخذ بالثأر، وبالخطابة كانوا يدعون للسلم؛ حقنًا للدماء، ومحافظة على أواصر القربى أو المودة والصلة، ويحببون في الخير والتصافي والتآخي، ويبغضون في الشر والتباغض والتنابذ، وبالخطابة كانوا يقومون بواجب الصلح بين المتنافرين أو المتنازعين، ويؤدون مهام السفارات جلبًا لمنفعة، أو درءًا لبلاء، أو تهنئة بنعمة، أو تعزية أو مواساة في مصيبة، فوق ما كانت الخطابة تؤديه هذه المصاهرات، فتلقى الخطب ربطًا لأواصر الصلة بين العشائر، وتحبيب المتصاهرين بعضهم في بعض.

وأشهر الخطباء في الجاهلية: قس بن ساعدة الأيادي، وقد أدركه النبي صلى الله عليه وسلم فرآه في سوق عكاظ على جمل أحمر، وسحبان بن وائل الباهلي الذي ضرب بفصاحته المثل. فقيل: "أخطب من سحبان" ويقال إنه كان إذا خطب يسيل عرقًا، ولا يعيد كلمة ولا يتوقف ولا يقعد حتى ينتهي من كلامه.

ومن خطباء تميم المشهورين: ضمرة بن ضمرة، وأكثم بن صيفي، وعمرو بن الأهتم المنقري، وقيس بن عاصم.

وكان الخطباء يحفلون بخطبهم، ويتخيرون لها أشرف المعاني، وأقوى الألفاظ، وأشدها وقعًا على القلوب؛ ليكون تأثيرها أعظم، ويقال إنهم كانوا يخطبون، وعليهم العمائم، وبأيديهم المخاصر، ويعتمدون على الأرض بالقسي، ويشيرون بالعصي والقنا، راكبين أو واقفين على مرتفع من الأرض.

وقد أثارت الشعوبية في موقفها من العرب عادة اتخاذهم العصي والمخاصر في أثناء خطابتهم، فرد عليهم الجاحظ في كتابه البيان والتبيين، مبينًا فوائد العصا، ومما قاله: "إن حمل العصا والمخصرة دليل على التأهب للخطبة والتهيؤ للإطناب والإطالة. وذلك شيء خاص في خطباء العرب، ومقصور عليهم، ومنسوب إليهم، حتى إنهم ليذهبون في حوائجهم، والمخاصر بأيديهم إلفًا لها، وتوقعًا لبعض ما يوجب حملها، والإشارة بها .

ومن الخطب التي تحرض على القتال: خطبة هانئ بن قبيصة في يوم ذي قار، يحرض قومه بكرًا على القتال، ومنها: يا معشر بكر، هالك معذور خير من ناج فرور، إن الحذر لا ينجي من القدر، وإن الصبر من أسباب الظفر، المنية ولا الدنية، استقبال الموت خير من استدباره، الطعن في ثغر النحور أكرم منه في الأعجاز والظهور، يا آل بكر، قاتلوا فما للمنايا من بد .

ومن كلمات الوفود: كلمة قبيصة بن نعيم في وفد بني أسد، حين قدموا على امرئ القيس بعد مقتل أبيه، فيروى أنه وفد على امرئ القيس، بعد مقتل أبيه، رجالات من بني أسد، كهول وشبان، وفيهم عبيد بن الأبرص الشاعر، والمهاجر بن خداش، وقبيصة بن نعيم، فلما علم امرؤ القيس بمكانهم، أمر بإنزالهم، وتقدم في إفضالهم، والإكرام عليهم، واحتجب عنهم ثلاثًا، فقالوا لمن يباريه من رجال كندة: ما بال الرجل لا يخرج إلينا؟

فقال: هو في شغل بإخراج ما في خزائن حجر من العدة والسلاح، فقالوا: اللهم غفرًا! إنما قدمنا عليه في أمر نتناسى به ذكر ما فات، ونستدرك ما فرط. فليبلغ ذلك عنا. فخرج عليهم في قباء، وخف، وعمامة سوداء، وكانت العرب لا تعتم بالسواد إلا في الترات.

فلما رأوه نهضوا، وبدر قبيصة فقال: إنك في المحل والقدر، والمعرفة بتصرف الدهر، وما تحدثه أيامه، وتنتقل به أحواله، بحيث لا تحتاج إلى تبصير واعظ، ولا تذكرة مجرب. ولك من سؤدد منصبك، وشرف أعراقك، وكرم أصلك في العرب محتمل يحتمل ما حمل عليه من إقالة العثرة، والرجوع عن الهفوة، ولا تتجاوز الهمم إلى غاية إلا رجعت إليك، فوجدت عندك من فضيلة الرأي، وبصيرة الفهم، وكرم الصفح، ما يطول رغباتها، ويستغرق طلباتها؛ وقد كان الذي كان من الخطب الجليل.

الذي عمت رزيته نزارًا واليمن، ولم تخصص به كندة دوننا؛ للشرف البارع الذي كان لحجر: التاج والعمة فوق الجبين الكريم، وإخاء الحمد، وطيب الشيم ولو كان هالك يفدى بالأنفس الباقية بعده لما بخلت كرائمنا على مثله ببذل ذلك، ولفديناه منه.

ولكن مضى به سبيل لا ترجع أولاه على آخره ولا يلحق أقصاه أدناه، فأحمد الحالات في ذلك أن تعرف الواجب عليك في إحدى خلال ثلاث: إما أن اخترت من بني أسد أشرفها بيتًا، وأعلاها في بناء المكرمات صوتًا، فقدناه إليك بنسعة تذهبمع شفرات حسامك بباقي قصرته: فيقال: رجل امتحن بهلك عزيز عليه فلم تستل سخيمته إلا بتمكينه من الانتقام، أو فداء بما يروح على بني أسد من نعمها، فهي ألوف تجاوز الحسبة، وكان ذلك فداء ترجع به القضب إلى أجفانها، لم يردده تسليط

الإحن على البرآء، وإما أن تواعدنا حتى تضع الحوامل، فنسدل الأزر، ونعقد الخمر فوق الرايات.

قالوا: فبكى امرؤ القيس ساعة؛ ثم رفع طرفه إليهم، فقال: قد علمت العرب أن لا كفء لحجر في دم، وإني لن أعتاض به ناقة أو جملًا، فأكتسب بذلك سبة الأبد، وفت العضد؛ وأما النظرة فقد أوجبتها الأجنة في بطون أمهاتها، ولن أكون لعطبها سببًا، وستعرفون طلائع كندة من بعد، تحمل في القلوب حنقًا وفوق الأسنة علقًا.

إذا جالـــت الخيـــل فـــي مـــأزق　　　تصـــافح فيــه المنايـــا النفوســـا

أتقيمون أم تنصرفون؟ قالوا: بل ننصرف بأسوأ الاختيار، وأبلى الاجترار، لحرب وبلية، ومكروه وأذية. ثم نهضوا عنه، وقبيصة يقول متمثلًا:

لعلك أن تستوخم الورد إن غدت　　　كتائبنـا فـي مـأزق المـوت تمطـر

فقال امرؤ القيس: لا، والله لا أستوخمه، فرويدًا ينكشف لك دجاها عن فرسان كندة؛ وكتائب حمير! ولقد كان ذكر غير هذا أولى بي، إذ كنت نازلًا بربعي، ومتحرمًا بزمامي، ولكنك قلت فأجبت، قال قبيصة إن ما نتوقع فوق قدر المعاتبة والإعتاب. قال امرؤ القيس: فهو ذاك، وفي ذلك يقول عبيد بن الأبرص:

يـــا ذا المخوفنـــا بقتـــل أبيـــه إذلالًا وحينـــا
هـــلا علـــى حجـــر بـــن أم قطـــام تبكـــي لا علينـــا
نحـــن الألـــى فـــاجمع جموعـــك ثـــم وجههـــم إلينـــا
نحمـــي حقيقتنـــا وبعـــض القـــوم يســـقط بـــين بينـــا

ونجد أمثلة من خطب الجاهليين في كتب الأدب والتاريخ؛ مثل العقد الفريد لابن عبد ربه؛ والأغاني؛ والأمالي؛ والبيان والتبيين للجاحظ، وفتوح الشام لأبي إسماعيل البصري، وفتوح الشام للواقدي، وفتوح البلدان للبلاذري وتاريخ الطبري، وابن الأثير.

الوصايا:

الوصية بمعنى النصح والإرشاد والتوجيه، وهي قول بليغ مؤثر، ويتضمن حثًّا على سلوك طيب نافع، حبًا فيمن توجه إليه الوصية، ورغبة في رفعة شأنه وجلب الخير له. وعادة تكون من أولياء الأمور وبخاصة الأب والأم لأبنائهما عند حلول الشدائد، أو حدوث الأزمات أو الإحساس بدنو الفراق، وهي نتيجة الخبرة الطويلة والملاحظة الدقيقة، والعقل الواعي والتفكير السليم ويدفع إليها المودة الصادقة والحب العميق.

ومن الوصايا: وصية عامر بن الظرب لقومه، ومنها: "يا معشر عدوان: لا تشمتوا بالذلة، ولا تفرحوا بالعزة، فبكل عيش يعيش الفقير مع الغني، ومن يَرَ يومًا يُرَ به، وأعدوا لكل أمر جوابه، إن مع السفاهة الندم، والعقوبة نكال، وفيها ذمامة، ولليد العليا العاقبة، وإذا شئت وجدت مثلك، إن عليك كما أن لك، وللكثرة الرعب، وللصبر الغلبة، ومن طلب شيئا وجده، وإن لم يجده أوشك أن يقع قريبا منه".

ومنها وصية زوجة عوف بن ملحم الشيباني لابنتها حينما زفت إلى زوجها الحارث بن عمرو ملك كندة، وفيها تقول:

أي بنية، إن الوصية لو تركت لفضل أدب؛ تركت لذلك منك؛ ولكنها تذكرة للغافل، ومعونة للعاقل، أي بنية إنك فارقت الجو الذي منه خرجت، وخلفت العش الذي فيه درجت إلى وكر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فكوني له أمة يكن لك عبدًا. يا بنية: احملي عني عشر خصال تكن لك ذخرًا وذكرًا، الصحبة بالقناعة، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة، والتعهد لموقع عينه، والتفقد لموضع أنفه، فلا تقع عينه منك على

قبيح؛ ولا يشم منك إلا أطيب ريح؛ والتعهد لوقت طعامه؛ والهدوء عند منامه؛ فإن حرارة الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مغضبة، والاحتفاظ ببيته وماله، والإرعاء على نفسه وحشمه وعياله؛ فإن الاحتفاظ بالمال حسن التدبير، والإرعاء على الحشم والعيال جميل حسن التقدير.

ولا تفشي له سرًّا، ولا تعصي له أمرًا؛ فإنك إن أفشيت سره لم تأمني غدره، وإن عصيت أمره أوغرت صدره، ثم اتقي –مع ذلك– الفرح إن كان ترحًا، والاكتئاب عنده إن كان فرحًا، فإن الخصلة الأولى من التقصير، والثانية من التكدير، وكوني أشد ما تكونين له إعظامًا، يكن أشد ما يكون لك إكرامًا، وأشد ما تكونين له موافقة، يكن أطول ما تكونين له مرافقة، واعلمي أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثري رضاه على رضاك، وهواه على هواك فيما أحببت وكرهت، والله يخير لك .

سجع الكهان:

وكانت الكهانة موجودة عند العرب في الجاهلية، وكان للكهان قداسة دينية، ونفوذ كبير، إذ كانوا يوهمون العامة بأنهم يعرفون الغيب عن طريق ما يتلقون من الجن، وكان الناس يتجهون إليهم يحكمونهم في المنازعات. والمنافرات. ويستشيرونهم في أمورهم وبخاصة المستقبلة. ويقصون عليهم أحلامهم لكي يفسروها لهم. وأحيانا كان الكهان ينذرون بعض القوم بأحداث تقع لهم.

ولم تكن الكهانة مقصورة على الرجال، بل كان هناك نساء كاهنات كذلك. ومن أشهر الكهان: شق أنمار. وتحكي الأساطير عن خلقته أنه كان شق إنسان له عين واحدة. ويد واحدة ورجل واحدة. ومنهم سطيح الذئبي: ويقولون عنه إنه لم يكن فيه عظم سوى جمجمته؛ وأن وجهه كان في صدره؛ ولم يكن له عنق. ومنهم المأمور الحارثي: كاهن بني الحارث بن كعب، وعزى سلمة. ومن أشهر الكاهنات: طريفة

الكاهنة: وكانت باليمن وفاطمة الخثعمية: وكانت بمكة، والزرقاء بنت زهير، وزبراء كاهنة بني رئام.

وكان الكهان في أحاديثهم يعمدون غالبًا إلى سجع مصطنع، فيه غموض وإبهام، وكأنما كانوا يقصدون زيادة التأثير في السامعين، وإلهاءهم عن التتبع لما يلقى إليهم من الأخبار التي كانت في منتهى الغرابة والعجب.

ومما ورد لهم ما يروى أن حجرا أبا امرئ القيس رق لبني أسد، فبعث في أثرهم؛ فأقبلوا حتى إذا كان على مسيرة يوم من تهامة تكهن كاهنهم وهو عوف بن ربيعة فقال لبني أسد: يا عبادي! قالوا: لبيك ربنا، قال: من الملك الأصهب، الغلاب غير المغلب، في الإبل كأنها الربرب، لا يعلق رأسه الصخب، هذا دمه ينشعب، وهذا غدًا أول من يسلب. قالوا: من هو يا ربنا؟ قال: لولا أن تجيش نفس جاشية، لأخبرتكم أنه حجر صاحية، فركبوا كل صعب وذلول، فما أشرق لهم النهار حتى أتوا على عسكر حجر فهجموا على قبته وقتلوه .

ويروى أن شقًّا وسطيحًا اتفقا على تعبير رؤيا رآها ربيعة بن نصر اللخمي أحد ملوك العرب، فأخبره سطيح بإغارة الحبشة على بلاد اليمن بسجع متكلف يبعث على التردد في تصديقه، إذ قال: "أحلف بما بين الحرتين من حنش، ليهبطن أرضكم الحبش، وليملكن ما بين أبين إلى جرش . وقال شق: "أحلف بين الحرتين من إنسان ليهبطن أرضكم السودان، وليملكن ما بين أبين إلى نجران.

ويقال إن زبراء أنذرت قومها غارة عليهم، فقالت: "واللوح الخافق والليل الغاسق، والصبح الشارق، والنجم الطارق، والمزن الوادق، إن شجر الوادي ليأدوا ختلًا، ويحرق أنيابًا عصلا، وإن صخر الطود لينذر ثكلًا، ولا تجدون عنه معلًا .

ومن المؤكد أن الكهان كانوا يسجعون في كلامهم بمثل هذا السجع بدليل أنهم لما سمعوا القرآن ظنوه من هذا القبيل، فرد الله زعمهم بقوله تعالى: {فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ} . وقوله تعالى: {وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ، وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ} ، وغير ذلك من الآيات.

وظاهر من نماذج نثرهم أن الكهان كانوا يستعملون السجع المتكلف الغامض، وفي جمل قصيرة، وغير واضحة المعنى، لكي تتحير الأذهان في فهم المقصود منها وأغلب الظن، بل يكاد يكون من المؤكد أنهم لم يكونوا يدركون حقيقة ما يقولون فكانوا يأتون بالألفاظ. ويرصفونها بعضها بجانب بعض بدون وعي تام لمعانيها، ما دام السجع موجودا فيها، ويكتنفها الغموض والإبهام، مكتفين بالإيماء والتلميح، متخذين من حال مخاطبيهم النفسية ما يساعدهم على ذلك، كما يفعل ضاربو الرمل والحصى بيننا الآن.

ملامح النثر الجاهلي

النثر الجاهلي شمل عدة نواح في الحياة الجاهلية، فطرق جميع المسائل التي تهم الإنسان في حياته واستخدم وسيلة فعالة في التأثير على النفوس، وفعلا كان – وما زال– له أثر كبير لا يقل عن أثر الشعر النفسي فهو بذلك نثر أدبي. ومن الفنون الجميلة الرفيعة.

كما أنه صور كثيرًا من المشاعر الإنسانية، فجاء في أغراض مختلفة وبخاصة ما كان منه في الخطابة والحكم والوصايا وتبعًا لذلك جاء في صور متعددة. وأساليب متباينة. طبقًا للنواحي التي يعالجها.

وفي النماذج النثرية التي سقناها للجاهليين، تجد منها ما هو طويل، ومنها ما هو قصير. ويتجلى القصر بشكل ظاهر في الحكم والأمثال. وتتراوح الخطب والوصايا بين الطول والقصر، ومن عادتهم في الخطب في الزواج .

يقول الجاحظ: إن الخاطب كان يطيل، ويقصر المجيب ويقول عن خطابتهم بوجه عام: اعلم أن جميع خطب العرب من أهل المدر والوبر والبدو والحضر على ضربين: منها الطوال، ومنها القصار. ولكل ذلك مكان يليق به، وموضع يحسن فيه. ومن الطوال ما يكون مستويًا في الجودة، ومتشاكلًا في استواء الصنعة ومنها ذوات الفقر الحسان. والنتف الجياد. ووجدنا عدد القصار أكثر، ورواة العلم إلى حفظها أسرع .

وفي النثر الجاهلي تتجلى العصبية القبيلة. في الفخر بالأحساب والأنساب في المفاخرات والمنافرات، ويظهر الحب والمودة والرغبة في الخير لأفراد الأسرة أو العشيرة الواحدة في النصائح والوصايا. ولئن شاع عنهم الغضب وسرعة التهور

والحمق والسفه، فإننا نرى من خلال هذه النماذج أنه كان فيهم ميل للصلح وحب للخير كهذا الذي نراه في كثير من تصرفات الحكام في المفاخرات والمنافرات وفي مساعي الصلح بين الأعداء والمتخاصمين لفض النزاع بالطرق السلمية.

وربما تكون القصص والأخبار التي تحكي عن حوادث معينة لم تحتفظ بنفس ألفاظ النص الجاهلي وعباراته فاعتراها التغيير من جانب الرواة والقصاصين لكن لا شك أن الأحداث التي فيها، لها أصل تاريخي.

أما الحكم والأمثال المنسوبة إلى الجاهليين، فهي في الغالب صحيحة في نسبتها إليهم، خصوصًا ما جاء عن راوية موثوق به كالمفضل الضبي؛ ذلك لأن الحكم والأمثال –على العموم– سرعان ما تعلق بالذهن، وتظل بالذاكرة مدة طويلة وبخاصة إذا أتيحت لها الفرص لإعادتها وتكرارها؛ ثم إنها دونت في عهد مبكر، منذ القرن الأول، فقد كتب فيها عبيد بن شرية كتابًا.

وإن كان هذا الكتاب قد فقد، فغلب على الظن أن من كتب فيها من بعده قد انتفع بكتابه هذا. على أن النصوص الدخيلة يغلب على الظن أن تكون تقليدًا مطابقًا للأصل بحيث نستطيع أن نتبين منها خصائص النثر في العصر الجاهلي.

والقصص الخرافية والأمثال الفرضية لا شك أنها كانت ترمي إلى تصوير حالات وتصرفات إنسانية ولم يرض مؤلفوها أن يكتبوا عن هذه الحالات أو التصرفات بالتصريح والتعيين، فاخترعوا هذه القصص مكتفين للوصول إلى أغراضهم بالتلميح والإشارة من طرف خفي.

ولا ريب أنها كانت ترمي كذلك إلى الناحية التهذيبية والتوجيه إلى الخير والنفع وبخاصة ما كان منها حكمًا وأمثالًا. ولا ريب أن تأليفها يدل على الذكاء، وقوة الملاحظة، وخصوبة الخيال لدى مؤلفيها.

وفي النثر الجاهلي ألفاظ وعبارات قد تبدو لنا غريبة. ولكن ذلك ليس لغرابتها في الأصل؛ ولكن لعدم استعمالنا لها، وفي بعض القطع النثرية تبدو السهولة في التعبير والمعنى بشكل واضح، ولا يجوز أن تكون هذه السهولة وحدها سببًا في الطعن في أصالة هذه النصوص، فليست السهولة متعارضة مع الأصالة الجاهلية، فكثير من النصوص الجاهلية شعرية ونثرية، سهلة الأسلوب، وهي مقطوع بصحتها وأصالتها، وفي القرآن الكريم يتجلى الأسلوب السهل الواضح في كثير من آياته، بل في كل سورة من سوره بأكملها.

وواضح جدا أن أصحاب النثر الجاهلي كانوا يعنون عناية ظاهرة بالألفاظ والعبارات فكانوا -على ما يبدو- يختارون ويدققون في الاختيار، ويظهر ذلك في القوة والجزالة، والتنغيم الموسيقي الذي نراه في الجمل النثرية على اختلاف الأشكال والأساليب ففي جميع أنواع النثر الجاهلي نجد الرصانة والانسجام التام بين الكلمات والعبارات بعضها وبعض، كما تظهر الناحية الموسيقية ظهورًا تامًّا في كل جملة، حتى إن الجملة قد تصلح أن تكون شطر بيت من الشعر لما فيها من النغمات الموسيقية المنتظمة، وبخاصة في الحكم والأمثال، مثل: "وتحت الرغوة اللبن الصريح"، فهي شطر من الوافر.

وجاء في النثر الجاهلي نثر مرسل، ونثر مسجع، ويغلب النثر المرسل في خطب الصلح والمعاهدات، وأما النثر المسجع ففي المفاخرات والمنافرات وفي نثر الكهان، بل إنه التزم في هذا الأخير التزامًا فكان الكهان لا يقولون إلا سجعًا ولذلك أطلق على نثرهم "سجع الكهان" ويظهر أن الجاهليين كانوا يعجبون بالنثر المسجع، حتى إنه كان يجيء أحيانا في الجملة الواحدة، مثل "إذا فزع الفؤاد ذهب الرقاد" و "ليس من العدل سرعة العذل" و "رب قول أنفذ من صول" ولكنه على العموم كان سجعًا

لطيفًا وجميلًا في موقعه مما يوحي بأنه طبيعي لا أثر للصنعة فيه، إلا في سجع الكهان، فالتكلف واضح فيه.

ويغلب في النثر الجاهلي الميل إلى الجمل القصيرة وبخاصة في الحكم والأمثال حتى إن الجملة قد تجيء مكونة من لفظتين فقط مثل "حر انتصف" و"سميعًا دعوت".

كما كان يتخلل نثرهم، وبخاصة الخطابة، أبيات شعرية، فتضفي على الكلام جمالًا، وروعة.

وفي النثر الجاهلي الوضوح والصراحة بحيث لا يحتاج إلى كد الذهن أو التعمق في الخيال، وليس هناك غموض إلا في سجع الكهان، وقد ذكرنا آنفًا أن الكهان كانوا يتعمدون الإبهام في سجعهم، فكانوا يقصدون إليه قصدًا.

وقد ورد في النثر بعض المحسنات البلاغية كالتشبيهات والاستعارات، والجناس؛ كما في "العدل" و"العذل" في "ليس من العدل سرعة العذل"؛ وكما في "قول" و"صول" في "رب قول أنفذ من صول".

ومن هذا كله يتبين أن النثر الجاهلي يمكن أن نعتمد عليه في تصوير الحياة واللغة العربية في العصر الجاهلي تصويرًا صادقًا، ومن أنواعه المختلفة يتضح أنه كان متنوع الأغراض متعدد الاتجاهات. وهو يدل دلالة واضحة على قوة الملاحظة، ودقة الإحساس، ورقة الشعور لدى أصحابه، ويتجلى فيه ذوقهم الفني بما تحقق لهم فيه من حسن التعبير وجمال التصوير.

المصادر والمراجع

- أدباء في الجاهلية وصدر الإسلام ، حياتهم – آثارهم – نقد آثارهم: بطرس البستاني، دار كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، ط،٢٠١٢م

- البيان والتبيين: عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى: ٢٥٥هـ)، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط١، ١٤٢٣ هـ

- تاج العروس من جواهر القاموس: محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ)، المحقق: مجموعة من المحققين، دار الهداية .

- تاريخ آداب العرب : مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي (المتوفى: ١٣٥٦هـ) دار الكتاب العربي .

- تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي: أحمد شوقي عبد السلام ضيف الشهير بشوقي ضيف (المتوفى: ١٤٢٦هـ) دار المعارف.

- تاريخ الأدب العربي: الدكتور عمر فروخ، الأدب القديم من مطلع الجاهلية إلى سقوط الدولة الأموية، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، ط٤، ١٩٨١م

- تاريخ الأدب العربي، الأدب الجاهلي، قضاياه، وأغراضه، أعلامه، فنونه، الدكتور غازي طليمات، الأستاذ عرفان الأشقر، مكتبة الإيمان، دمشق- سوريا، دار الإرشاد بحمص، ط١، ١٩٩٢م

- تاريخ العرب القديم : توفيق برو، دار الفكر،الطبعة الثانية ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م

زغلول سلام ، الناشر: منشأة المعارف، الإسكندرية – مصر، ط١، ،د.ت.

- جمهرة أشعار العرب: أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي (المتوفى: ١٧٠هـ)، حققه وضبطه وزاد في شرحه: علي محمد البجادي، لناشر: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع،د ت.

- ديوان النابغة الذبياني بتمامه : صنعة ابن السكيت الإمام أبو يوسف يعقوب بن اسحق،(١٨٦-٢٤٤هـ) تحقيق الدكتور شكري الفيصل، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – مطابع دار الهاشم بيروت/ لبنان، ط١، دت

- ديوان طرفة بن العبد : طَرَفَة بن العَبْد بن سفيان بن سعد البكري الوائلي أبو عمرو الشاعر الجاهلي (المتوفى: ٥٦٤ م) المحقق: مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، ط٣، ٢٠٠٢م

- الذخائر والعبقريات – معجم ثقافي جامع،: عبد الرحمن بن عبد الرحمن بن سيد بن أحمد البرقوقي الأديب المصري (المتوفى: ١٣٦٣هـ) الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، مصر،ط١، د.ت، ج٢، ص١٣٥.

- رجال المعلقات العشر: مصطفى بن محمد سليم الغلاييني (المتوفى: ١٣٦٤هـ)

- شرح المعلقات السبع : حسين بن أحمد بن حسين الزَّوْزَني، أبو عبد الله (المتوفى: ٤٨٦هـ) دار احياء التراث العربي، الطبعةالأولى ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢ م.

- طبقات فحول الشعراء : محمد بن سلّام بن عبيد الله الجمحي بالولاء، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٣٢هـ) المحقق: محمود محمد شاكر، دار المدني – جدة

-العقد الفريد: أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب ابن حدير بن سالم المعروف بابن عبد ربه الأندلسي (المتوفى: ٣٢٨هـ)،الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤٠٤ هـ،

- العمدة في محاسن الشعر وآدابه: أبو على الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (المتوفى: ٤٦٣ هـ) المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط٥، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.

- الفن ومذاهبه في النثر العربي: أحمد شوقي عبد السلام ضيف الشهير بشوقي ضيف (المتوفى: ١٤٢٦هـ) دار المعارف، الطبعة الثالثة عشرة

- في تاريخ الأدب الجاهلي المؤلف: علي الجندي، مكتبة دار التراث، طبعة دار التراث الأول، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م

- المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام : الدكتور جواد علي (المتوفى: ١٤٠٨هـ) دار الساقي، ط٤، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م .

- المفضليات: المفضل بن محمد بن يعلى بن سالم الضبي (المتوفى: نحو ١٦٨هـ)، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، الناشر: دار المعارف – القاهرة، ١٩٦٤، ط٦، ص٢٥٨

- الممتع في صنعة الشعر: عبد الكريم النهشلي القيرواني، المحقق: الدكتور محمد

- لسان العرب : محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ)، دار صادر – بيروت، ط٣ - ١٤١٤ هـ.

- مصادر الشعر الجاهلي : ناصر الدين الأسد، دار المعارف بمصر، الطبعة السابعة ١٩٨٨.

- نقد الشعر: قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي، أبو الفرج (المتوفى: ٣٣٧هـ)، مطبعة الجوائب – قسطنطينية، ط١.

فهرس الموضوعات